آرثر كونان دويل
علامة الأربعة
المغامرة الثانية لشيرلوك هولمز
ترجمة
ميسره الدندراوي
الدولية للنشر والتوزيع
فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كلاسيكيات عالمية..

رواية..

دراسة في القرمزي

آرثر كونان دويل

ترجمة: ميسرة الدندراوي

المغامرة الثانية لشيرلوك هولمز..

نبذة عن الرواية

شيرلوك هولمز يشعر بالملل!

لكنّ قضية غريبة تدق بابه، فتُشعل خلايا عقله نشاطًا وحماسًا..

قضية عن كنز هندي مفقود، وأربعة رجال يخفون سرًا خطيرًا، وجريمة قتل غامضة..

ساق خشبية، وسهام مسمومة، وفتاة رقيقة حزينة تبحث عن سر غامض..

ببساطة، هذه هي القضية المناسبة لبطلنا..

إن شيرلوك هولمز قد بدأ العمل، ولن يوقفه أحد!

إهداء المترجم

إلى أبي وأمي
لعلكما تنظران لي وأنتما تبتسمان فرحًا

مقدمة المترجم

نحن أمام الرواية الثانية التي يظهر على صفحاتها بطلنا الاستثنائي، السيد شيرلوك هولمز.

تتركز أهمية شيرلوك هولمز عند أغلب قراء الأدب في العالم، في مقدرته الفائقة على رؤية أدق التفاصيل، وملاحظة أصغر الأمور، ببساطة شديدة، وبلا أي تعقيد، إنه ليس بطلاً خارقًا يرى خلف الأسوار أو يسمع أصوات الأشباح، أو يمتلك معدات تكنولوجية معقدة، بل إنه يفعل ذلك بحواس بشرية فقط، حواس دربها على العمل بهذا المنهج، وشذّبها حتى صارت حادة، قادرة على الإتيان بما لا يفعله سواه..

وهنا، تأتي عبقرية المبتكر، الرجل الذي يقف خلف هذه الشخصية الأسطورية، السير آرثر كونان دويل.

كان آرثر كونان دويل، المولود في بريطانيا في القرن التاسع عشر، يدرس الطب، إلا أنه أحب الأدب، وعندما كتب روايته الأولى عن شخصية المحقق الأسطوري، تأثر بالغ التأثر بأستاذه في الجامعة، الذي كان يمتلك موهبة استثنائية في الاستدلال، وذلك عن طريق رؤية تفاصيل بسيطة وحقائق بديهية، وربطها بعضها ببعض؛ حتى يصل إلى استنتاج صحيح.

نشر آرثر كونان دويل روايته الثانية، علامة الأربعة، في العام ١٨٩٠، وتعرض فيها بشكل كبير- إلى جانب المغامرات البوليسية. لقضايا الهوية الإنسانية، وإلى العواطف والمشاعر البشرية البسيطة، وخاصة من راوي قصصه ورفيق بطله التاريخي، الدكتور جون واطسون، الرجل الذي رافق شيرلوك هولمز طوال حياته في كل مغامراته، بل وكان راوي أغلب قصصه ورواياته.

وبدأ واطسون منذ هذه الرواية في لعب دور كبير في الأحداث، فلم يعد راويًا للأحداث فقط، بل أصبح مشاركًا فعّالًا فيها.

تواصلت أعمال دويل التي تتناول شخصية شيرلوك هولمز، العشرات من القصص القصيرة والقصص الطويلة، عن الشخصية الأسطورية، ثم في أواخر العام ١٨٩٣، نشر آرثر كونان دويل قصته الشهيرة، المشكلة الأخيرة، والتي شهدت المواجهة الكبرى لشيرلوك هولمز، مع عدوه الذكي النابغ، جيمس موريارتي، والتي شهدت مقتلهما معًا.

وبعد عشر سنوات كاملة، وبعد أن انقلبت عليه جماهير القراء، إلى حد مقاطعة المجلة التي كانت تنشر قصصه، نشر دويل روايته الثالثة التي أعاد فيها شيرلوك هولمز إلى الحياة، كلب باسكرفيل، والتي حطمت كل أرقام المبيعات في تاريخ الأدب، ثم عاد لكتابة القصص القصيرة عن شيرلوك هولمز، حتى نُشرت آخر مجموعاته قبل وفاة آرثر كونان دويل بثلاثة أعوام، بالتحديد في العام ١٩٢٧، ليبلغ مجموع الأعمال التي كُتبت عن شيرلوك هولمز ستين عملاً، في فترة أربعين عامًا تتخللها عشرة أعوام من القطيعة، وبيع منها ما يزيد على العشرين مليون نسخة.

الفصل الأول

علم الاستدلال

التقط شيرلوك هولمز زجاجته الأثيرة من فوق رف المدفأة، وأخرج حقنته من داخل غلافها الأنيق المصنوع من جلد الماعز، وبأصابعه البيضاء الطويلة المتوترة راح يتحسس سن الحقنة الرفيع، ثم شمر كُم قميصه الأيسر وهو يتأمل كوعه الذي تغطيه علامات وندوب سابقة، ثم غرس سن الحقنة في وريده وضغط على مكبسها مسترخيًا في مقعده المخملي الوثير، وهو يتنهد في ارتياح.

كنت قد شهدت تكرار هذا المشهد ثلاث مرات يوميًّا، ولعدة شهور، لكن تكراره لم يجعلني أتقبله بأي شكل من الأشكال، بل على العكس، فلقد تنامى استيائي يومًا بعد يوم، وظل ضميري المتيقظ يؤرقني كل ليلة، فأنا لا أملك الشجاعة لأبدي اعتراضي على ما يفعله صديقي العزيز بنفسه، لكن أسلوبه المليء بكلمات اللامبالاة جعلني أراجع نفسي.

فصديقي العزيز هولمز، هو آخر مَن تفكر في الحديث معه عن أمر شخصي.

لكن في عصر ذلك اليوم تجاسرت وغلبت مخاوفي وصمتي؛ ربما من أثر النبيذ الفرنسي، أو ربما بسبب ضيقي الزائد من طريقته الغريبة في حقن نفسه، وشعرت ساعتها أني لن أستطيع كتمان استيائي وحنقي أكثر من ذلك.

كان يقرأ في مجلد ضخم مغلف بالجلد عندما سألته ساخرًا:

- مورفين أم كوكايين؟

في وهن رفع عينيه نحوي وأجاب كالمنوم:

- كوكايين، محلول تركيزه سبعة بالمائة، هل تود تجربته؟

- بالطبع لا، وحتى لو جرؤت، فإن جسدي لم يتعافَ بعد من آثار الحملة الأفغانية.

قابل حدتي وضيق صدري بابتسامة واهنة، وقال معقبًا:

- ربما تكون محقًّا يا عزيزي واطسون، فأنا أعتقد أن تأثيره سيئ على الجسم، ولكنه يفتح أبواب عقلي على مصارعها، ويمنحني القدرة على التفكير بعقل حر متحفز، وهو ما يجعل آثاره الجانبية السيئة أمرًا ثانويًّا.

- قد يحرر عقلك ويحفزه كما تقول، لكنك مقابل ذلك يستنزف صحتك ويتسبب في تلف أنسجة جسمك وأوعيتك الدموية؛ مما قد يضعفك جسديًّا، كما أنه يجعلك متوترًا طوال الوقت.

ثم اعتدلت في جلستي وأنا أتابع ساخطًا:

- لماذا بحق السماء قد تغامر بفقدان قدراتك ومهاراتك العظيمة مقابل لذة لحظية مميتة؟ الأمر في رأيي لا يستحق العناء أبدًا، وتذكر أني لا أنصحك فقط باعتباري صديقك الوحيد، ولكن باعتباري طبيبك المسئول عن صحتك بشكل أو بآخر.

- عقلي يثور عليَّ يا عزيزي من كثرة الركود.

ثم التفت نحوي وعيناه تلمعان ببريق كاد يضيء غرفة الجلوس الكئيبة:

- أريد قضايا، أريد مشكلات لأحلها، أريد شفرات معقدة كي أعمل عليها، وساعتها فقط سأكون بخير، وسأتخلى عن أي محفزات للعقل، فأنت تعلم كم أمقت هذه الحياة الروتينية المملة، وأتوق إلى ذلك النشاط الذهني المستمر، وربما كان هذا سببًا لاختراعي لتلك المهنة وأن أكون الشخص الوحيد في العالم الذي يعمل في هذه الوظيفة.

رفعت حاجبي مستنكرًا مستغربًا من تصريحه عن مهنته، وتابعت:

- إذن أنت المحقق الاستشاري الوحيد في العالم؟

- يمكنك أن تقول إني أمثل أعلى محكمة استئناف في مجال التحقيقات، فعندما يواجه جريجسون أو ليستراد شيئًا يفوق حدود قدراتهم المحدودة وهو ما يحدث عادة. فإنهم يضعونه بين يدي.

ثم سرح ببصره نحو المدفأة الخامدة متابعًا:

- لكني لا أنسب الفضل لنفسي في هذه القضايا، ولا يظهر اسمي في أي جريدة أو مطبوعة، فمكافأتي فقط هي منحي الفرصة كي أستخدم قدراتي.

ثم التفت نحوي وعلى شفتيه شبح ابتسامة:

- أنت نفسك شهدت مهاراتي العظيمة وأساليبي في قضية جيفرسون هوب.

ابتسمت رغمًا عني عندما تذكرت تلك القضية، وأجبته:

- بالطبع، ففي حياتي لم أرَ مثيلًا لما فعلته، حتى إنني قد دونت أحداث تلك القضية الغريبة في كتيب صغير، ومنحته عنوانًا غريبًا بعض الشيء، دراسة في القرمزي.

هز رأسه بأسى قائلًا:

- لقد ألقيت نظرة عليه، وبصراحة شديدة، لا أستطيع أن أهنئك على هذا الكتيب، فالاستنتاج المنطقي في الواقع علم دقيق، علم بعيد عن المشاعر البشرية المحدودة، لكن أسلوبك الأدبي أضاف إليه مسحة رومانسية، وكانت النتيجة .للأسف. تشبه محاولة إقحام قصة حب ملتهبة على الفرضية الخامسة لإقليدس.

نظرت له مستنكرًا، وتابعت:

- لكن الأمر لم يخلُ من الرومانسية يا شيرلوك، ولم يكن باستطاعتي أن أغير الحقائق.

- بعض الحقائق يجب إخفاؤها يا جون، أو على الأقل تناولها بقدر من التوازن والحيادية، فالنقطة الوحيدة التي تستحق الذكر في القضية هي الاستدلال المنطقي الذي أوصلني إلى الأسباب الحقيقية، والذي نجحت بفضله في حل القضية.

أغضبني هذا النقد لعملي .الذي كتبته خصيصًا من أجل إسعاده. وأعترف أيضًا أنني انزعجت من أنانيته المفرطة ورغبته في أن أخصص كل سطر في الكتيب للحديث عن مهاراته وقدراته المتميزة.

وكنت بالطبع قد لاحظت أكثر من مرة خلال السنوات التي عشتها معه في شقتنا المتواضعة بشارع بيكر، أن أسلوب صديقي شيرلوك هولمز الهادئ المتميز، يخفي قدرًا لا بأس به من الغرور والنرجسية.

لم أعلق على كلامه، وجلست أدلك ساقي المصابة بدهانات علاجية متعددة، ومع أنها لم تعقني عن المشي؛ فإنها كانت تؤلمني بشدة مع كل تغير في الطقس.

قال هولمز وهو يملأ غليونه في هدوء:

- لقد امتد نشاطي مؤخرًا إلى باقي أنحاء أوروبا، ففي الأسبوع الماضي طلب استشارتي رجل يُدعَى فرانسوا لو فيلارد، وكما تعلم، فهو يمتلك سرعة البديهة التي تميز أجداده السلتيين، لكن تنقصه المعرفة الدقيقة في بعض المجالات التي يحتاج إليها لتطوير مهاراته.

كل الناس ينقصهم شيء إلا العظيم شيرلوك هولمز، هكذا حدثت نفسي وأنا أتابع ما يقوله:

- كانت القضية تدور حول وصية، لكن شيئًا ما فيها أثار اهتمامي، ونصحته أن يعود إلى قضيتين مشابهتين، واحدة حدثت في ريجا عام ١٨٥٧، والثانية في سانت لويس عام ١٨٧١، وقد قادتاه إلى الحل الصحيح، وهذا هو الخطاب الذي تلقيته هذا الصباح للإشادة بالمساعدات العظيمة التي قدمتها له.

ثم ألقى إليَّ بورقة مجعدة كأنما مضغها كلب شرس، أخرجها من دفتر ملاحظاته، فمررت بعيني عليها، ولمحت العديد من عبارات الإعجاب الشديد، والعديد من الكلمات الفرنسية متناثرة فوق سطور الرسالة.

- إنه يتحدث إليك مثل الطالب إلى معلمه!

- إنه يبالغ في تقدير مساعدتي له، فهو متعدد المواهب، ويمتلك اثنتين من الصفات الثلاث للمحقق المثالي، فلديه قوة الملاحظة والقدرة على الاستنتاج، ولكنه يفتقر فقط إلى المعرفة، وهذه يمكن أن تأتي مع الوقت، هل تعرف أنه يترجم حاليًّا أعمالي إلى الفرنسية؟

- أعمالك؟!

خرجت من بين شفتيه ضحكة هادئة خاملة، وتابع:

- نعم، ألم تكن تعرف ذلك؟ فأنا كتبت عدة دراسات تدور حول موضوعات فنية تخص علوم الاستدلال والتحقيقات، فهذه الأوراق فوق المدفأة هي على سبيل المثال. دراسة حول (التمييز بين رماد الأنواع المختلفة من التبغ)، وفيها ذكرت مائة وأربعين نوعًا من تبغ السيجار والسجائر والغليون، وبها رسوم ملونة توضح الفرق بين رماد كل منها، فهذه نقطة تثار باستمرار في المحاكمات الجنائية، وأحيانًا تكون ذات أهمية قصوى باعتبارها دليلًا، وبالنسبة إلى العين المدربة؛ فإن الفرق بين الرماد الأسود لسيجار تريكينوبولي والزغب الأبيض الذي يُخلِّفه تبغ بيردز آي كالفرق بين الكرنب والبطاطس.

- أنت تتمتع بموهبة فذة في التعامل مع أدق التفاصيل يا صديقي.

قال معقبًا:

- أنا أُقدِّر أهميتها بشكل كبير، انظر، هذه هي دراستي حول تقفِّي آثار الأقدام، وبها بعض الملاحظات حول استخدام الجبس الفرنسي في حفظ الآثار، وهذه كذلك دراسة صغيرة مثيرة

للاهتمام حول تأثير الحرفة على شكل اليدين، وألحقت بها أشكال أيدي بنَّائي أسقف، وبحارين، وقاطعي فلين، ومُنسِّقي طباعة، ونساجين، ومُلمِّعي أحجار كريمة، فهذا أمر ذو أهمية كبيرة.

ثم صمت فجأة وانطفأ ذلك البريق في عينيه:

- يبدو أنني أثرت مللك بحديثي هذا.

أومأت برأسي رافضًا، وعقبت:

- على الإطلاق، إن هذا يثير اهتمامي كثيرًا، وخاصة بعد أن شاهدت تطبيقك له على أرض الواقع، ولكنك كنت تتحدث الآن عن الملاحظة والاستدلال، وهما في رأيي وجهان لعملة واحدة.

مدد ساقيه واستراح في مقعده الوثير، وهو ينفث دخانًا أزرق كثيفًا من غليونه:

- ليس تمامًا، فعلى سبيل المثال، لاحظت أنا أنك ذهبت هذا الصباح إلى مكتب بريد شارع ويجمور، ولكن الاستدلال يجعلني أعرف أنك أرسلت برقية من هناك.

- هذا صحيح، أنت محق في النقطتين، ولكنني أعترف بأني لا أفهم كيف توصلت إلى ذلك؟!

قهقه ضاحكًا من دهشتي، وتابع:

- الأمر بسيط جدًّا يا عزيزي واطسون، بسيط لدرجة أنه لا يستلزم شرحًا، ومع ذلك قد يساعد في توضيح الفرق بين الملاحظة والاستدلال، فلقد أخبرتني الملاحظة أن ثمة القليل من التراب الأحمر يلتصق بنعل حذائك، وقبالة قسم شارع ويجمور، بدأت البلدية في رصف الشارع، فوضعوا الطين بطريقة تجعل من الصعب تفادي المشي فوقه عند الدخول، وذلك الطين له هذا اللون الأحمر المميز الذي لا يوجد على حد علمي في أي مكان آخر في هذه الناحية سوى أمام مكتب البريد.

- كيف استنتجت أمر البرقية إذن؟

- حسنًا، أنا أعرف بالطبع أنك لم تكتب خطابًا، وهذا لأني أجلس أمامك طوال النهار، وأرى أيضًا في مكتبك المفتوح ورقة من الطوابع ورزمة سميكة من البطاقات البريدية؛ أي أنك قد تستخدم الصناديق البريدية إذا أردت إرسال رسالة، فما الذي يدفعك إذن إلى الذهاب إلى مكتب البريد إلا لإرسال برقية؟! الأمر بسيط جدًّا، إذا استبعدت كل العوامل بسبب ملاحظاتك الدقيقة؛ فستجد أن المتبقي هو الحقيقة.

شردت لثوانٍ، ثم قلت معقبًا:

- هذا صحيح في هذه الحالة، لكن كما قلت هذا أمر بسيط، فهل ستعتبرني وقحًا إن وضعت نظرياتك أمام اختبار أكثر تعقيدًا.

- على العكس، فهذا على الأقل سيمنعني من أخذ جرعة أخرى من الكوكايين.

اعتدلت قليلًا في جلستي، وتابعت:

- لقد سمعتك تقول إنه من الصعب أن يمتلك المرء غرضًا يستخدمه يوميًّا دون أن يترك أثرًا شخصيًّا عليه، أثرًا تستطيع العين المدربة ملاحظته، والآن أنا معي هنا ساعة جيب حصلت عليها مؤخرًا، فهلَّا أخبرتني عن شخصية صاحبها السابق أو عاداته.

ثم ناولته الساعة، فقد كان هذا الاختبار من وجهة نظري صعبًا للغاية، وكنت أنوي استخدامه لتلقينه درسًا يتصدى لنبرته المغرورة.

راح يُقلِّب الساعة في يده، وعيناه تجوبان مكوناتها، ثم فتحها من الخلف وفحص أجزاءها الداخلية بعينه المجردة، ثم تناول عدسته المقربة من فوق طاولة الشاي وراح يتفحصها، بينما منعت نفسي بصعوبة من الابتسام عندما ارتسمت على وجهه خيبة الأمل وهو يغلقها ويعيدها إليَّ.

- لا أكاد أجد أي بيانات أو آثار، فهذه الساعة تعرضت للتنظيف مؤخرًا.

- هذا صحيح، فقد نُظِّفت قبل أن تُرسَل إليَّ من مالكها السابق.

دعني عزيزي القارئ أقولها بصراحة شديدة، وقتها قلت لنفسي بأنه يقدم عذرًا واهيًا وضعيفًا؛ ليبرر فشله، فما نوع المعلومات التي يمكن العثور عليها من ساعة لم تُنظَّف إذن؟

قال وهو يحدق في السقف بعينين حالمتين:

- وعلى الرغم من عدم حصولي على ما يكفي من المعلومات من خلال البحث؛ فإنني لم أخرج منه خالي الوفاض، فقط صحِّحْ لي إن كنت مخطئًا.

ثم التفت نحوي متابعًا:

- يمكنني القول إن الساعة كانت ملكًا لأخيك الأكبر الذي ورثها بدوره عن أبيك.

- لقد خمنت هذا دون شك من حرفَي إتش ودبليو المرسومين على ظهرها.

- هذا صحيح، فحرف دبليو يشير لاسم عائلتك (واطسون)، أما عمر الساعة فهو خمسون عامًا تقريبًا، والأحرف نُقِشت في نفس فترة صناعتها، وعادةً ما تُورَّث هذه القطع للابن الأكبر الذي يكون اسمه الأخير على الأرجح. هو نفس اسم أبيه؛ كما جرت العادة، وإن لم تخني الذاكرة، فقد تُوفِّي أبوك منذ عدة سنوات، وبالتالي أصبحت في حيازة أخيك الأكبر.

غمغمت بصوت خفيض:

- أنت محق حتى الآن.

فتابع وكأنه لم يسمعني:

- أما أخوك يا عزيزي واطسون، فهو رجل فوضوي مهمل، حصل على فرص جيدة كي يكون غنيًّا ميسور الحال، لكنه مع الأسف أهدرها، فعاش فقيرًا معدمًا يعاقر الخمر ولا يكاد يفيق منها، ثم مات.

ساعتها فقط التفت إليَّ وفي عينيه تلك النظرة الواثقة المتغطرسة:

- هذا ما أمكنني الاستدلال عليه من الملاحظة يا عزيزي.

هببت واقفًا من مقعدي وأنا أشيح بوجهي عنه، ورحت أجوب غرفة الجلوس كنمر حبيس.

نمر أعرج تؤلمه ساقه المصابة.

- هذا لا يليق بك يا هولمز، فلم أتخيل أنك قد تنحدر إلى هذا المستوى.

- اعذرني ولكني لا أفهم سر غضبك!

- لقد تحريت عن تاريخ أخي التعيس بكل تأكيد، وهأنت تتظاهر بأنك استنتجت هذا كله بهذه الطريقة الخيالية، فلا تتوقع مني أن أصدق أن استدلالك المزعوم قد نتج عن فحصك لساعته لبضع دقائق!

- هذا ما حدث يا عزيزي.

توقفت عن الدوران وأنا أصيح فيه باستياء:

- ما فعلته أمر شديد القسوة والغرور.

فابتسم وأجابني بلطف شديد:

- أرجوك تقبَّلْ أسفي يا صديقي، فقد نظرت إلى الأمر باعتباره مشكلة مجردة، ونسيت كم هو أمر شخصي لك، لكن تأكدْ أني لم أكن أعلم أن لك أخًا قبل أن تعطيني هذه الساعة.

- إذن كيف بحق الشيطان عرفت هذه الحقائق؟!

- حسنًا، يمكنني القول إنه خليط من دقة الملاحظة والحظ الجيد؛ فأنا لم أقل إلا ما ترجحه كفة الاحتمالات، ولم أتوقع على الإطلاق أن أكون دقيقًا إلى هذا الحد!

- ألم يكن ذلك مجرد تخمين مبني على معلومات سابقة؟!

أشار بيده معترضًا وهو يتابع:

- لا لا، فأنا لا ألجأ أبدًا للتخمين، ببساطة أنت ترى هذا كله غريبًا بالنسبة إليك؛ لأنك لا تتبع أسلوب تفكيري، ولا تلاحظ الحقائق الصغيرة التي يمكن أن تُبنَى عليها استنتاجات كبيرة، دعني أشرح لك باستفاضة.

ثم عكف على تعبئة غليونه (هذه المرة بتبغ عادي غير مخلوط)، وهو يتابع:

- على سبيل المثال بدأت حديثي عن أخيك بقول إنه كان فوضويًّا مهملًا، فإذا نظرت إلى الجانب السفلي من هذه الساعة، فسوف تلاحظ أنها ليست منبعجة فقط من مكانين بشكل فوضوي، بل تغطيها أيضًا خدوش وعلامات؛ جرَّاء وضع أشياء حادة معها في نفس الجيب، فلنقل عملات معدنية أو مفاتيح، وهذا يدلك بالطبع على نوعية الرجل الذي يعامل ساعة قيمتها خمسون جنيها بهذا الاستهتار، هذا أمر لا يحتاج إلى عبقري، وليس من الصعب كذلك الاستدلال على أن رجلًا ورث غرضًا واحدًا بتلك القيمة الكبيرة، قد ورث أيضًا ما يكفيه ليغطي نفقات حياته.

أومأت برأسي موافقًا على استدلالاته المنطقية؛ فتابع بهدوء شديد:

- ومن عادة أصحاب الرهانات في إنجلترا أنهم عندما يرهنون ساعة لديهم، فإنهم ينقشون رقم تذكرة الرهن داخل غطاء الساعة بسن حاد، أمر متوحش هو، لكنهم لا يخاطرون بإضاعة الرقم أو تبديله سرًّا، وقد رأيت ما لا يقل عن أربعة من تلك الأرقام بعدستي داخل غطاء الساعة، وهو ما بيَّن أن أخاك كان كثير الوقوع في ضوائق مالية؛ مما يعني أنه بدد أمواله وممتلكاته، ويعلم الله وحده كيف كان يسترد الساعة من صاحب الرهن، وأخيرًا أطلب منك النظر إلى اللوح الداخلي الذي به ثقب المفتاح، انظر جيدًا إلى آلاف الخدوش الموجودة حوله، وهي علامات تعني أن المفتاح كان ينزلق كلما حاول صاحب الساعة أن يعيد تعبئتها لتعمل، إذن فهو رجل مخمور لا يكاد يرى موضع الثقب، أخبرني إذن عن الغموض في كل ما قلته.

أنهى كلماته وهو ينفث دخان غليونه ليصنع سحابة كثيفة أمام عينَي المنبهرتين.

- إن هذا واضح كالشمس، أعتذر عن الإساءة التي وجهتها لك يا صديقي.

التفت ناحية النافذة المطلة على شارع بيكر، وقال في حزن بالغ:

- لذلك لجأت إلى الكوكايين، فأنا لا أستطيع أن أحيا دون استثارة عقلي، ولا يوجد شيء آخر يستحق أن أحيا من أجله.

ثم أشار بإصبعه الطويل النحيل إلى الشارع المزدحم خلف زجاج النافذة، متابعًا:

- أرأيت ما أكثر كآبةً وتوحشًا من ذلك العالم خلف النافذة؟ أترى كيف يزحف الضباب الأصفر ليغطي الشارع ويلتف حول المنازل قاتمة الألوان؟ أيوجد ما هو أكثر ضجرًا وماديةً من ذلك؟ ما فائدة التمتع بقدرات غير عادية إن لم يكن لدى المرء فرصة لاستخدامها؟

الجريمة مبتذلة، والوجود مبتذل، ولا توجد مهارات على وجه الأرض قد تجعل من الأمور المبتذلة أمورًا ذات قيمة.

كدت أفتح فمي للرد على هذه الخطبة اليائسة، لكن طرقات مهذبة على باب شقتنا ألجمت لساني، ثم دلفت السيدة هادسون من الباب وهي تحمل صينية فضية أنيقة تنام فوقها بطاقة أنيقة.

قالت موجهة كلامها لهولمز:

- سيدة شابة تطلب مقابلتك يا سيد هولمز.

تناول هولمز البطاقة، وقرأ الاسم بصوت مرتفع:

- الآنسة ماري مورستن، لا أذكر هذا الاسم على وجه التحديد، أرجو عطفك يا سيدتي، اطلبي من الآنسة أن تصعد إلى شقتنا يا سيدتي.

ثم التفت نحوي بنصف وجهه قائلًا:

- لا تذهب يا دكتور، فأنا أفضل أن تبقى.

لحظتها عرفت أن أمنية صديقي ستتحقق أخيرًا.

وأن مخزون الكوكايين سيظل ثابتًا لبعض الوقت.

الفصل الثاني
قضية الآنسة ماري مورستن

دخلت الآنسة مورستن الغرفة بخطوات واثقة يبدو عليها ظاهريًّا التماسك.

كانت شابة شقراء ضئيلة الحجم أنيقة ترتدي قفازًا سميكًا وملابس راقية الذوق، إلا أن ملابسها كان بها شيء من البساطة توحي بضعف الحال، ترتدي فستانًا بلون كريمي يميل إلى الرمادي غير مهذب الأطراف، وكانت ترتدي قبعة صغيرة بنفس اللون الباهت لا يكسر كآبتها إلا ريشة بيضاء على جانبها.

لم تكن ملامح وجهها منمقة ولا بشرتها جميلة، لكن تعبيرات وجهها كانت مريحة ولطيفة، وعيناها الزرقاوان الواسعتان بهما قدر غير عادي من الود.

لقد عرفت الكثير من النساء في رحلتي التي امتدت لعدة جنسيات وعبر ثلاث قارات، لكني لم أرَ وجهًا يعكس مكنون صاحبته الرقيقة والحساسة أكثر من وجهها، كما لاحظت ارتجاف شفتيها وارتعاش يديها بينما تجلس على المقعد الخشبي الذي وضعه شيرلوك هولمز لها، وظهرت عليها جميع علامات الاضطراب والقلق.

قالت وهي تعقد يديها في رُقِي:

- أتيت إليك يا سيد هولمز؛ لأنك ساعدت من قبل السيدة سيسل فورستر ربة عملي.

- السيدة سيسل فورستر أظن أنني أسديت إليها بالفعل خدمة بسيطة.

- ساعدتها على كشف غموض مشكلة أسرية، وقد انبهرت كثيرًا بقدراتك ومهاراتك العظيمة.

- لكن وعلى ما أذكر. كانت القضية بسيطة للغاية.

ابتسمت في تهذيب، وقالت:

- ربما هي تخالفك الرأي في ذلك التصور، ولكن اسمح لي أن أقول: هذه البساطة لا تنطبق على قضيتي أبدًا، فأنا لا أتخيل أي شيء أغرب وأصعب مما يمر بي الآن.

فرك هولمز يديه ولمعت عيناه بذلك البريق الذي رأيته يوم جاءنا ليسترد ليطلب استشارته في قضية اللون القرمزي، ثم مال للأمام في مقعده، وارتسمت على وجهه علامات التركيز الشديد، وقال:

- اذن اعرضي عليَّ قضيتك يا آنسة.

- ماري.. ماري مورستن.

شعرت بأن لا مكان لي في هذه الجلسة المهنية، فنهضت مستأذنًا:

- حسنًا يا هولمز، أراك في وقت الغداء.

لدهشتي؛ رفعت الشابة كفها المغطى بقفاز قماشي رخيص، وقالت:

- إذا سمحت لِي وطلبت من صديقك التفضل بالبقاء؛ فقد يستطيع إسداء خدمة جليلة لِي.

نظرت نحوها ونحو هولمز مندهشًا، ثم عدت إلى مقعدي مرة أخرى.

استطردت قائلة:

- باختصار يا سيد هولمز، فإن الوقائع يمكن أن تُلخَّص كالتالي، كان والدي ضابطًا في كتيبة في الهند، وقد أعادني إلى الوطن عندما كنت طفلة صغيرة، وبما أن والدتي تُوفِّيت وأنا بعد رضيعة ولم يكن لي أقارب في إنجلترا؛ فقد ألحقني بمدرسة داخلية مريحة في إدنبرة، ومكثت فيها حتى بلغت سبعة عشر عامًا، وفي عام ١٨٧٨ حصل والدي على إجازة مدتها عام كامل، وعاد للوطن، ثم أرسل إليَّ برقية من لندن يخبرني فيها أنه وصل ويطلب مني أن آتي إليه بسرعة، وأعطاني عنوانه في فندق لانجهام.

التمعت عيناها بدموع حبيسة رقيقة وهي تتابع:

- كانت رسالته مليئة بالحب والحنان والشوق إلى لقاء ابنته الوحيدة، وعندما وصلت إلى لندن ذهبت بالسيارة إلى فندق لانجهام، وهناك أخبروني بأن السيد مورستن كان نزيلًا بالفندق بالفعل، ولكنه خرج ليلة أمس ولم يعد بعدها.

وجه هولمز ما زال كما هو، وجه مستمع مصمت خالٍ من أي تعبيرات، بينما تابعت ماري:

- انتظرت طوال اليوم ولكن لم ترد أي أخبار عنه، وتواصلت مع الشرطة تلك الليلة، ثم وضعنا إعلانًا في جميع الصحف، ولم تسفر تحرياتنا عن أي نتائج، وظللت أبحث طويلًا عن أبي المسكين بلا نتيجة، حتى ملت مني الشرطة ومل مني الجميع، وحتى الآن لم أسمع أي أخبار عن والدي المسكين، الرجل الذي عاد أخيرًا إلى الوطن وقلبه مفعم بالأمل، باحثًا عن القليل من السكينة والراحة، ولكنه بدلًا من ذلك...

ثم وضعت يدها على فمها وراحت تأن بصوت مسموع ودموعها تسيل على وجنتيها الصافيتين.

فتح هولمز دفتر ملاحظاته في هدوء، وسألها:

- ما تاريخ اختفائه؟

- الثالث من ديسمبر عام ١٨٧٨؛ أي منذ قرابة عشر سنوات.

- وأمتعته؟

- ظلت في الفندق ولم يكن بها أي دليل يوحي بأي معلومة مفيدة، بعض الملابس وبعض الكتب وعدد كبير من التحف النادرة من جزر أندمان.

- هل كان له أي أصدقاء في لندن؟

سرحت ببصرها قليلًا وتابعت محاولة التذكر:

- صديقه الوحيد الذي أعرفه هو الرائد شولتو زميله في الكتيبة نفسها، وقد تقاعد قبل وقت قليل وعاش في أبرنوروود.

- وهل تواصلتم معه وقتها؟

- بالطبع فعلنا، ولكنه لم يكن حتى يعلم أن زميله في الكتيبة قد عاد إلى إنجلترا!

- مممم.. قضية غريبة.

مالت بنصفها إلى الأمام، وارتسمت على وجهها علامات الجدية:

- سيد هولمز، أنا لم أصل بعد إلى وصف الجزء الأغرب، فمنذ ست سنوات وبالتحديد في الرابع من مايو عام ١٨٨٢ ظهر إعلان في جريدة التايمز يسأل عن الآنسة ماري مورستن، ويقول إنه من مصلحتها أن ترد على هذا الإعلان، والغريب أنه لم يكن هناك أي اسم أو عنوان ملحق بالإعلان.

- وهل حاولتِ التواصل؟

هزأت رأسها نافية في رقة، وتابعت:

- كنت حينها قد بدأت العمل مربيةً لأسرة السيدة سيسل فورستر، وعملًا بنصيحتها نشرت عنواني في عمود الإعلانات في نفس الجريدة، وفي نفس اليوم وصلني عبر البريد صندوق صغير عليه اسمي، وعندما فتحته وجدت داخله لؤلؤة كبيرة ولامعة جدًّا لم يُرفَق معها أي رسائل أو كلمات، ومنذ ذلك الحين في نفس التاريخ من كل عام يصلني صندوق شبيه داخله لؤلؤة شبيهة دون أي دليل على مُرسِله، وقد أكد لي خبير مجوهرات أن هذه اللآلئ من نوع نادر وذات قيمة كبيرة جدًّا، يمكنكما أن تريا جمالها بأنفسكما، فقد أتيت بها معي.

ثم فتحت صندوقًا صغيرًا كاشفة عن ست حبات من أجمل اللآلئ التي رأيتها في حياتي.

قال شيرلوك هولمز:

- ما قلته مثير جدًّا للاهتمام يا آنستي، هل من تفاصيل أخرى؟

- اليوم بالتحديد حدث أمر جديد، ولذلك أتيت إليك هذا الصباح

- وما هو؟

- تسلمت هذا الخطاب، وربما يكون من الأفضل لو قرأته بنفسك.

تناول هولمز الظرف منها، وراح يقلبه بين كفيه ويفحصه وهو يقر كالقطط:

- ختم البريد لندن إس دبليو بتاريخ السابع من يوليو، ممم، حسنًا توجد بصمة لإصبع رجل على هذا الجانب، غالبًا لساعي البريد، وهذا الورق عالي الجودة وباهظ الثمن، فسعر الحزمة من ذلك الظرف ثمنها نصف شلن، هذا إذن رجل ذوقه رفيع في الأدوات المكتبية.

ثم أخرج الرسالة وقرأها بصوت مكتوم، ثم أعاد قراءتها:

- انتظري عند العمود الثالث من اليسار خارج مسرح لايسيوم في تمام الساعة السابعة مساء اليوم، وإذا شعرت بالارتياب فيمكنك اصطحاب صديقين معك. أنت سيدة مظلومة وسوف يُرَد إليكِ حقك، أرجوك ألا تحضري الشرطة، فإن فعلت فسيذهب كل هذا هباء. توقيع: صديقك المجهول.

غمغم هولمز ببعض الكلمات؛ كأنما يبدي دهشته أو حيرته، ثم تابع:

- هذا حقًّا أمر غامض للغاية، ما الذي تنوين فعله يا آنسة مورستن؟

- هذا ما أردت أن أسألك عنه يا سيدي.

- حسنًا، أرى أن نذهب بالطبع أنا وأنت ومعنا الدكتور واطسون، فهو الرجل المناسب لهذه

المهمة، فمرسل الخطاب قال تحديدًا أن تأتي بصديقين، وأنا وواطسون ينطبق علينا ذلك.

- لكن هل سيوافق الطبيب المحترم على المجيء؟

سألت بنبرة رقيقة وتعبيرات فيها شيء من الخجل، فقلت بحماس:

- سأكون فخورًا وسعيدًا إن استطعت المساعدة بأي طريقة يا آنسة.

- أنتما سيدان كريمان جدًّا، فأنا عشت حياة منعزلة وليس لدي أي أصدقاء ألجأ إليهم.

- بكل السرور يا آنسة مورستن.

- إذا حضرت إلى هنا في الساعة السادسة فسيكون هذا مناسبًا لكما، أليس كذلك؟

تابع هولمز معقبًا:

- يجب ألا تتأخري عن ذلك، ولكن هناك نقطة أخيرة.

- بالتأكيد، وما هي؟

- هل خط اليد هذا هو الخط نفسه الموجود على علب اللآلئ؟

ابتسمت في رقة مجيبة:

- لقد أحضرتها معي.

ثم أخرجت ست ورقات صغيرة تبدو كتلك التي تميز اسم المُرسَل إليه فوق الطرود، فابتسم هولمز معلقًا:

- أنت عميلة مثالية حقًّا، لنرَ الآن ما لدينا.

ثم فرش الأوراق على الطاولة، وجال بنظره بسرعة بينها، ثم قال:

- هذه خطوط يد يحاول صاحبها إخفاء هويته بتغيير زاوية الكتابة أو نوع الحبر، باستثناء الخطاب، لكن لا شك في أن كاتبها واحد، انظرا معي كيف يظهر حرف (e) الذي يصعب إخفاء طريقة كتابته، وانظرا أيضًا إلى الجزء المُلتَف من الحرف (s) الأخير، فلقد كتبها كلها شخص واحد بلا شك، حسنًا، لا أريد أن أمنحك أملًا زائفًا يا آنسة مورستن، ولكن هل يوجد أي تشابه بين خط يد أبيك وهذا الخط؟

- لا يوجد أي شبه بينهما على الإطلاق.

- حسنًا، توقعت أن تقولي هذا؛ لذا فسوف نكون في انتظارك إذن في الساعة السادسة اليوم، وأرجو أن تسمحي لي بالاحتفاظ بالأوراق، فقد أحتاج إلى أن أنظر في الأمر قبل موعدنا، فالساعة الآن لم تتعدَّ الثالثة والنصف.

- كما تحب، إلى اللقاء إذن.

ثم رمقت كلانا بنظرة ممتنة ودود، وأعادت اللآلئ إلى جيبها، وذهبت مسرعة.

اتجهت إلى النافذة ووقفت أمامها وأنا أتابعها تبتعد بخطوات سريعة، حتى أصبحت قبعتها الرمادية ذات الريشة البيضاء مثل بقعة صغيرة في نسيج الحشود القاتم المكفهر.

التفت إلى صديقي وصحت قائلًا:

- يا لها من امرأة جذابة!

كان قد أشعل غليونه مجددًا، واستلقى للخلف مرخيًا جفنيه؛ لذا فقد رد بفتور:

- حقًّا! لم ألحظ ذلك.

- لأنك مجرد آلة حسابات يا صديقي، فثمة جانب غير آدمي بك.

- من المهم يا واطسون ألا تسمح لنفسك أن تكون متحيزًا في حكمك على أحد بسبب الصفات الشخصية، كما أن العميل بالنسبة إليَّ هو مجرد عنصر في القضية، فالصفات المثيرة للمشاعر هي عدو للتفكير المنطقي الواضح.

ثم ابتسم في لطف، وتابع:

- أؤكد لك يا عزيزي أن أكثر النساء اللاتي قابلتهن جاذبية، هي امرأة شُنِقت بتهمة تسميم ثلاثة أطفال؛ طمعًا في أموال التأمين على حياتهم، وأن أكثر الرجال دمامة في دائرة معارفي هو رجل خيِّر للغاية أنفق قرابة ربع مليون جنيه على فقراء لندن.

- لكن في هذه الحالة فهي تبدو...

قاطعني متابعًا:

- أنا لا أعطي أي استثناءات يا واطسون؛ فالاستثناء يبطل القاعدة. والآن قل لي، هل أتيحت لك من قبل الفرصة لدراسة الشخصية من خط اليد؟ وماذا تستنتج من هذا الخط؟

أجبته في بساطة:

- إن خطه مقروء ومنتظم، يعني أنه رجل عملي وقوي الشخصية.

هز هولمز رأسه نفيًا، وقال:

- انظر إلى طريقته في كتابة الأحرف ذات الأطراف الطويلة، فالحرف (d) هذا قد يُقرَأ (a)، والحرف ((l قد يُقرَأ e))، والرجال ذوو الشخصيات القوية دائمًا ما يميزون الأحرف ذات الأطراف الطويلة؛ بصرف النظر عن صعوبة قراءة خطهم، كما أن طريقة كتابته للحرف (k) تنم عن التذبذب وعدم الاستقرار.

ثم نهض وهو يضع معطفه فوق كتفه، وتابع:

- سوف أخرج الآن، فأنا أريد التأكد من بعض الأمور، ودعني أرشح لك هذا الكتاب، إنه كتاب استشهاد الإنسان لوينوود ريد، اقرأ فيه قليلًا وأنت تنتظرني، وسوف أعود بعد ساعة.

ثم خرج وأغلق الباب خلفه، وسمعت وقع خطواته على السلم الخشبي.

جلست أمام النافذة وفي يدي الكتاب، لكني لم أقرأ حرفًا منه، فقد سرحت بأفكاري بعيدًا، وتذكرت زائرتنا الرقيقة؛ ابتساماتها، ونبرات صوتها الدافئة، وهذا اللغز الكبير الذي يخيم على حياتها.

إذا كان عمرها عند اختفاء والدها سبعة عشر عامًا عندما غادرت المدرسة، فهي في السابعة والعشرين، وهو العمر الذي يفقد الشباب فيه إحساسه الزائد بالذات، وتكون التجارب قد أصقلته وزادت من كفاءة تفكيره.

جلست سارحًا في أفكاري حتى راودتني أفكار خطرة، أفكار جعلتني أهرع إلى مكتبي وأنهمك بشدة في قراءة آخر أطروحة حول علم الأمراض، فأنا مجرد جراح بالجيش ساقه ضعيفة ورصيد حسابه البنكي أضعف من التفكير في الفتيات الحسناوات ذوات السبعة وعشرين عامًا.

فإذا كان مستقبلي مظلمًا، فالأفضل أن أواجهه كالرجال، بمفردي، وليس بأن أنيره بوهج كاذب من وحي الخيال.

الفصل الثالث

البحث عن الحل

عاد هولمز في الخامسة والنصف، وقد بدا سعيدًا ومتحمسًا.

معنوياته مرتفعة وهي حالة مزاجية لا تميز المريض بالاكتئاب الشديد .كما في حالته. فقدرت أنه يتعافى بالفعل من حالة اكتئابه السابقة.

قال وهو يلتقط كوب الشاي الذي أعددته له:

- الأمر ليس لغزًا كبيرًا، فالحقائق تشير إلى تفسير واحد فقط.

- هل حللت القضية بالفعل؟

- حسنًا سأبالغ إن قلت هذا. كل ما في الأمر أنني اكتشفت حقيقة مهمة للغاية، أما التفاصيل فلم تنكشف بعد، فلقد اكتشفت للتو بعد الرجوع إلى أرشيف جريدة التايمز أن الرائد المتقاعد شولتو الذي كان يعيش في بوندشيري قد تُوفِّي في الثامن والعشرين من أبريل عام ١٨٨٢.

- قد أكون بليدًا جدًّا ومحدود الذكاء يا هولمز، لكني لا أري ما أهمية ذلك؟

- حقًّا! أنت تفاجئني بذلك يا عزيزي، فلتنظر إلى الأمر باهتمام أكثر، هذا يعني أن النقيب مورستن يختفي والشخص الوحيد الذي كان بإمكانه زيارته في لندن هو الرائد شولتو، لكن الرائد شولتو ينفي معرفته بأنه موجود في لندن وبعد ذلك بأربعة أعوام يموت شولتو، وخلال أسبوع من وفاته تتلقى ابنة النقيب مورستن هدية قيمة تتكرر كل عام، وينتهي الأمر بذلك الخطاب الذي يصفها بأنها مظلومة. قل لي إذن، ما الظلم الذي يقصده صاحب الرسالة إن لم يكن قد سلبها أباها؟ ولماذا بدأ في إرسال الهدايا بعد وفاة شولتو مباشرةً، إلا إذا كان وريث شولتو يعلم شيئًا عن هذا اللغز ويرغب في تعويضها؟ هل لديك أي نظرية بديلة أخرى تتسق مع تلك الحقائق؟

- بل إني لا أرى أي حقائق. فيا له من تعويض غريب، وطريقة تنفيذه أغرب! ولماذا أيضًا يكتب خطابًا الآن وليس منذ ستة أعوام، ثم يتحدث الخطاب عن تحقيق العدالة لها، فما العدالة التي يمكن أن تتحقق لها؟ فيصعب افتراض أن أباها لا يزال على قيد الحياة، وأنت تعلم أنه ليس ثمة ظلم آخر وقع عليها إلا وفاة أبيها، ولا يمكنني التفكير في تعويض مناسب لذلك.

قال هولمز وهو مستغرق في التفكير:

- توجد بعض الصعوبات والعراقيل بالتأكيد، ولكن رحلتنا الاستكشافية الليلة سوف تزيلها جميعًا.

ثم صمت قليلًا وهو يرهف السمع:

- ها قد جاءت العربة وداخلها الآنسة مورستن، لنذهب الآن فقد تأخرنا لبضع دقائق، وكن على استعداد، بالطبع تفهمني.

أخذت قبعتي وأثقل عصا أملكها، ولكني لاحظت أن هولمز أخرج مسدسه من درج المكتب

ووضعه في جيبه، فقد كان يظن أن مهمتنا الليلية قد تكون خطيرة للغاية.

كانت الآنسة مورستن ذات الوجه الرقيق ترتدي معطفًا داكنًا فضفاضًا، لكن الشحوب غزى وجهها وملأه بالقلق.

قلت لنفسي إن هذه الآنسة الرقيقة ستُصنَّف كامرأة خارقة إن لم يكن ينتابها بعض التوتر بشأن هذه الرحلة الغربية التي نحن مقدمون عليها، لكنها كانت .على الرغم من ذلك. شديدة التماسك وعلى مستوى عالٍ من ضبط النفس، وأجابت على الفور عن بعض الأسئلة الإضافية القليلة التي طرحها هولمز عليها.

قالت مستطردة:

- لقد كان الرائد شولتو صديقًا مقربًا جدًّا لأبي، فقد كان أبي يذكره كثيرًا في خطاباته عندما كانا يقودان القوات في جزر أندمان؛ لذا فقد خاضا العديد من الصعوبات معًا.

ثم تذكرت شيئًا ما، فأكملت:

- بالمناسبة، عُثِر على ورقة غريبة في مكتب أبي لم يفهم أحد منها شيئًا، ولا أظن أنها ذات أهمية تذكر، وعلى الرغم من ذلك؛ اعتقدت أنك قد ترغب في رؤيتها، وقد أحضرتها معي ها هي.

ناولت الورقة لهولمز، ففتحها الأخير بحرص، وفردها على ركبته، وفحصها بعناية بعدسته المقربة، وعلَّق قائلًا:

- هذا الورق مصنوع في الهند، وقد ظلت هذه الورقة معلقة بدبوس على لوح لبعض الوقت، أما المخطط المرسوم عليها فيبدو أنه خريطة لجزء من مبنى كبير به العديد من الردهات والممرات والأروقة، وعند نقطة معينة هناك علامة صليب صغيرة مرسومة بالحبر الأحمر وفوقها كُتِب ٣.٣٧ من اليسار بقلم رصاص باهت، وفي الطرف الأيسر يوجد رمز غريب تصعب قراءته يشبه أربعة صلبان على خط واحد تتلامس أطرافها، ومكتوب بجوار هذا الرمز بحروف حادة وسميكة جدًّا علامة الأربعة، جوناثان سمول ومحمد سينج وعبد الله خان ودوست أكبر، في الحقيقة لا أجزم بعدم وجود علاقة لهذه الورقة بالأمر، لكن من الواضح أنها وثيقة مهمة حُفِظت بعناية داخل صفحات مفكرة جيب، فجانباها كما ترون على الدرجة نفسها من النظافة.

- بالفعل، لقد وجدناها في مفكرة جيبه.

- إذن احفظيها بعناية يا آنسة مورستن، فقد يتضح أنها ذات أهمية بالنسبة إلينا.

ثم نظر نحو الطرقات خافتة الإضاءة، متابعًا في شرود:

- إن هذا الأمر قد يكون أعمق كثيرًا وأكثر غموضًا مما ظننته في البداية، ويجب أن أعيد النظر في أفكاري حوله.

ثم استرخى في مقعده في العربة، واستنتجت من حاجبيه المعقودين وعينيه الخاويتين أنه غارق في التفكير.

تحدثت مع الآنسة مورستن بنبرة خافتة عن رحلتنا الحالية ونتائجها المحتملة، لكن رفيقنا ظل على صمته وانعقاد حاجبيه حتى وصلنا إلى وجهتنا.

كان ذلك المساء في شهر سبتمبر، ولم تكن الساعة قد دقت السابعة بعد، والضباب المصحوب بمطر خفيف يخيم على المدينة العظيمة، مدعمًا بالسحب ذات اللون الطيني التي تذرف قطرات المطر بحزن فوق الشوارع الموحلة.

وفي شارع ستراند بدت المصابيح كأنها مجرد بقع ضوء مشتت تلقي بوميضها الدائري الخافت على الرصيف الموحل، والوهج الأصفر المنبعث من واجهات المحلات يتسلل إلى الهواء المعبأ بالرطوبة ويلقي بشعاعه المكتوم على الشارع المزدحم.

كنت دومًا ما أرى في التتابع اللانهائي للوجوه المتدفقة تحت خطوط الضوء المعتمة شيئًا موحشًا ومخيفًا، وجوهًا حزينة، ووجوهًا سعيدة، وجوهًا عابسة، ووجوهًا فرحة، وكعادة الجنس البشري بأكمله؛ كانت تنتقل بسرعة من الظلام إلى الضوء ومن الضوء تعود إلى الظلام مجددًا.

في العادة، فأنا رجل عملي لا أحمل أي انطباعات مسبقة، لكن هذا المساء الكئيب الحزين صنع تحالفًا مع هذه المهمة الغريبة التي نحن بصددها ليجعلاني أشعر بالتوتر والكآبة، واستطعت أن أدرك من مظهر الآنسة مورستن أنها تشاركني تلك المشاعر، بينما صديقي ورفيقي هولمز .كعادته. كان يترفع عن الوقوع أسيرًا لتلك المؤثرات التافهة والمشاعر البشرية الضعيفة، فقد كان يضع دفتر ملاحظاته المفتوح على ركبته، ومن آنٍ لآخر كان يخط فيه رموزًا وملاحظات تحت ضوء مصباح جيبه الصغير.

أمام مسرح لايسيوم كانت الحشود كثيفة بالفعل عند المداخل الجانبية، وفي الأمام توافد سيل من العربات التي تسابقت لإنزال حمولتها من الرجال المتأنقين والنساء اللاتي يرتدين الشالات والمجوهرات، وما كدنا نصل إلى العمود الثالث مكان موعدنا المتفق عليه حتى بادرنا بالحديث رجل أسمر ضئيل، خفيف الحركة، يرتدي ملابس سائق عربة أجرة.

سألنا بلهجته الشعبية:

- هل أتيتما بصحبة الآنسة مورستن؟

فأجابت ماري وهي تطل برأسها من العربة:

- أنا الآنسة مورستن، وهذان السيدان صديقاي،

نظر إلينا بعينين ثاقبتين متفحصتين، وقال بأسلوب صارم:

- اعذريني يا آنسة، ولكني أطلب منكِ تأكيدًا بأن رفيقيك ليسا من الشرطة، كليهما أو أحدهما.

- أؤكد لك ذلك.

أومأ برأسه، ثم أطلق صفيرًا حادًّا، فأحضر على إثره طفل متسول عربة تجرها الخيل وفتح بابها مسرعًا، فركب الرجل الذي تحدث إلينا مكان السائق، وطلب منا أن ننضم إليه.

أخذنا أماكننا داخل العربة، وما إن فعلنا هذا حتى ضرب السائق الهواء حول حصانه بالسوط، وانطلق بسرعة كبيرة عبر الشوارع الضبابية الموحلة.

كان الموقف مريبًا، فقد كنا ننطلق إلى مكان مجهول في مهمة مجهولة، إلا أن تلك الدعوة إما أن تكون خدعة تامة .وهو افتراض وارد. وإما أن ثمة ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن أمورًا مهمة قد تكون مُعلَّقة على رحلتنا.

بدت أقصى درجات التماسك والحزم على الآنسة مورستن، فحاولت أن أروح عنها وأسليها بمقتطفات من مغامراتي في أفغانستان، لكني أنا نفسي صراحةً كنت قلقًا من وضعنا ولديَّ فضول لأعرف وجهتنا، لدرجة جعلت قصصي مشوشة قليلًا وغير مترابطة! وإلى يومنا هذا تقول لي إني حكيت لها حكاية مؤثرة مضطربة. عن فوهة بندقية دخلت إلى خيمتي في ظلام الليل، وكيف أطلق عليَّ النار من ماسورة مزدوجة!

في بادئ الأمر كانت لديَّ فكرة عن الاتجاه الذي نسير فيه، ولكن سرعان ما فقدت شعوري بالاتجاهات؛ بسبب السرعة والضباب ومعرفتي المحدودة بشوارع لندن، ولم أشعر غير أننا نسير لمسافة طويلة، لكن شيرلوك هولمز لم يخطئ ولا مرة، وكان يتمتم بأسماء الطرق والشوارع، بينما أسرعت العربة قاطعة الميادين والشوارع الجانبية المتعرجة.

راح يتمتم:

- هذا روتشستر روود، وهذا ميدان فينسنت، والآن وصلنا إلى طريق فوكسهول بريدج. حسنًا، يبدو أننا نعبر الآن إلى جانب آخر من النهر، تمامًا كما ظننت، والآن نحن على الجسر فيمكنكما أن تلمحا النهر.

لمحنا فعلًا بنظرة خاطفة من النافذة نهر التيمز، ومصابيح الإنارة يسطع ضوءها على سطحه الواسع الساكن، لكن عربتنا أكملت طريقها في اندفاع، وما لبثت أن دخلت إلى شبكة متداخلة من الشوارع على الجانب الآخر من النهر.

قال رفيقي المتيقظ:

- طريق ووردسورث وطريق بريوري، ثم جادة لارك هول، ثم ستوكويل بليس وشارع روبرت، وجادة كولد هاربور! حسنًا، يبدو أن قضيتنا هذه لن تأخذنا إلى مناطق راقية.

كنا قد وصلنا بالفعل إلى حي مشبوه وموحش، وهناك صفوف طويلة من المنازل الكئيبة المبنية بالطوب، ولم يكن يكسر كآبتها إلا الأضواء الساطعة والألوان المبهرجة للحانات الموجودة عند ناصية الشارع، تلتها صفوف من البيوت ذات الطابقين، أمام كل منها حديقة صغيرة، ثم صفوف ممتدة من المباني الجديدة المبنية من الطوب، تقف محدقة مثل المخالب الضخمة التي يمدها وحش المدينة إلى الريف! وأخيرًا توقفت العربة أمام ثالث منزل في صف جديد من المنازل.

لم يكن أي من المنازل الأخرى المجاورة آهلًا، والمنزل الذي توقفنا أمامه كان مظلمًا مثل المنازل المجاورة له، إلا من ضوء منبعث من نافذة المطبخ، لكن عندما طرقنا الباب فتحه على الفور خادم هندي يرتدي عمامة صفراء وثوبًا أبيض فضفاضًا ووشاحًا أصفر على خصره، وثمة شيء من التناقض الغريب في منظر هذا الشخص الشرقي، وهو يقف على مدخل باب عادي لمنزل سكني من الدرجة الثالثة في ضواحي لندن.

قال في هدوء:

- إنه ينتظركم.

وفي أثناء كلامه صاح صوت حاد مرتفع من إحدى الغرف الداخلية، قائلًا:

- أدخِلْهم إليَّ يا صاحبِ، أدخِلْهم إليَّ على الفور.

الفصل الرابع
قصة الرجل الأصلع

تبعنا الهندي في ممر قذر متواضع رديء الإضاءة والأثاث، حتى وصلنا إلى باب عن يميننا، وما إن فتحه حتى غمرنا وهج من الضوء الأصفر وفي وسط ذلك الوهج وقف رجل ضئيل الجسم أصلع الرأس يحيطه من الجانبين شعر أحمر خشن وفي منتصفه بدا جلد رأسه الأصلع اللامع كقمة جبل تبرز وسط غابة من الأشجار الحمراء الخشنة!

أطبق يديه معًا وعلى وجهه ارتسم تعبير متهجم غير مريح للنظر، عريض الفم متدلي الشفاه، ومن بين شفتيه ترى صفًّا من الأسنان الصفراء غير المستوية البارزة، التي كان يسعى بشدة لإخفائها بتمرير يديه على الجزء السفلي من وجهه باستمرار، وعلى الرغم من صلعه الواضح؛ فإن مظهره كان يوحي بصغر سنه.

في الواقع، كان قد أتم عامه الثلاثين للتو حسب خبرتي في شكل وتكوين أجساد البشر.

ظل يكرر بصوت حاد مرتفع:

- أنا في خدمتكِ يا آنسة مورستن، وفي خدمتكما أيها السيدان. تفضلوا بالدخول إلى صومعتي المتواضعة، إنه مكان صغير يا آنستي، ولكنه مؤثث على ذوقي، إنه بمثابة واحة للفن وسط صحراء جنوب لندن المقفرة.

ذُهِلنا جميعًا من مظهر الشقة التي دعانا للدخول إليها، ففي هذا المنزل المتواضع كانت تبدو في غير موضعها تمامًا، كألماسة من أجود الأنواع وُضِعت داخل إطار من النحاس.

كانت شقة صغيرة، تدلت من جدرانها أقيم أنواع الستائر والمنسوجات الجدارية وأكثرها بهرجة، والتي انحسرت في بعض المواضع لتظهر وراءها لوحة فنية معلقة بأناقة أو مزهرية شرقية، بينما كان لون السجادة كهرمانيًّا مطعمًا بالأسود، ناعمة وكثيفة لدرجة أن قدم المرء تغوص فيها بلطف وكأنها تغوص في رقعة من الطحالب، ولاحظت وجود قطعتين من جلد النمر كانتا مفروشتين بعرض الغرفة، وكذلك النارجيلة الكبيرة التي كانت موضوعة فوق بساط في ركن الغرفة، وثمة مصباح على شكل حمامة فضية يتدلى من حبل ذهبي يكاد يكون غير مرئي في منتصف الغرفة، ومع توهجه كان ينشر في الهواء رائحة عطرية نفاذة.

قال الرجل الضئيل الحجم وهو لا يزال يبتسم تلك الابتسامة غير المريحة:

- ثاديوس شولتو، هذا هو اسمي، وأنت الآنسة مورستن بالطبع، وهذان السيدان هما...

- السيد شيرلوك هولمز، وهذا الدكتور واطسون.

صاح بحماس كبير:

- دكتور، هذا رائع، حسنًا، هل معك سماعتك الطبية؟ هلَّا تفضلت بالكشف عليَّ؟ فأنا قلق جدًّا على سلامة صمامي التاجي. هلَّا تكرمت بالكشف عليَّ؟ فأنا لست قلقًا بشأن الصمام الأورطي إنما سأكون ممتنًّا لسماع رأيك بخصوص الصمام التاجي.

ابتسمت رغمًا عني، ثم أخرجت السماعة الطبية من جيب معطفي .فهي لا تفارقني أبدًا. واستمعت إلى قلبه كما طلب مني، ولم أجد أي علة به؛ باستثناء أنه كان يمر بأقصى درجات الخوف، فقد كان يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه، ولا أعرف لماذا؟! فنحن مَن يتوجب أن نرتجف قلقًا، ثم قلت:

- يبدو طبيعيًّا، فلا داعي للقلق.

- اعذري توتري يا آنسة مورستن، فأنا شخص معتل الصحة، وتراودني شكوك منذ مدة طويلة بشأن ذلك الصمام، ويسعدني أن أعرف أنها غير مبررة، فلو كان والدك يا آنسة مورستن كف عن تعريض قلبه للإجهاد لكان من الممكن أن يبقى على قيد الحياة الآن.

كدت أصفع وجهه من الغيظ، فقد أثارت ملاحظته القاسية والعفوية لهذا الموضوع الحساس حنقي الشديد، بينما جلست الآنسة مورستن وقد امتُقِع وجهها بالكامل وصار أبيض اللون، وقالت:

- كنت أشعر في قرارة نفسي أنه مات.

- يمكنني أن أطلعك على كل ما يخص الأمر من تفاصيل، بل ويمكنني أن أرد لك حقك، وفي الحقيقة هذا ما أنوي فعله، بصرف النظر عما قد يقوله أخي بارثلوميو، وأنا سعيد للغاية بقدوم صديقيك إلى هنا ليس لمرافقتك فحسب، بل ليشهدا أيضًا على ما أنا بصدد قوله وفعله، فيمكن أن نشكل جبهة قوية أمام أخي بارثلوميو، لكن دعونا لا نقحم أحدًا بيننا، لا الشرطة ولا السلطات الرسمية، فيمكننا أن نسوي الأمور بيننا بطريقة مرضية دون أي تدخلات، فلن يضايق أخي بارثلوميو شيء أكثر من التشهير.

ثم جلس على أريكة منخفضة، ونظر إلينا وهو يطرف بعينيه الزرقاوين الواهنتين المترقرقتين بتساؤل.

قال هولمز معقبًا:

- بالنسبة إليَّ سيظل كل ما تقوله لنا سرًّا بيننا.

أومأت برأسي لأبدي موافقتي، فقال:

- هذا جيد هذا جيد. والآن، هل ترغبين في كأس من نبيذ شيانتي يا آنسة مورستن؟ أو من نبيذ توكاي؟ فليس لديَّ أي أنواع أخرى من النبيذ. هل أفتح زجاجة؟ لا، حسنًا إذن، آمل ألا تمانعي رائحة دخان التبغ، أعني تلك الرائحة المهدئة الخفيفة لدخان التبغ الشرقي التي تتصاعد من النارجيلة، فأنا متوتر قليلًا، وأجد في نارجيلتي مهدئًا فعالًا.

أشعل إناء النرجيلة الكبير، وامتزج الدخان بماء الورد بسلاسة محدثًا فقاعات مسموعة، وجلس ثلاثتنا مكونين نصف دائرة، وقد مد كل منا رأسه للأمام وأسند ذقنه على يديه، بينما جلس الرجل الضئيل الحجم ذو الرأس المدبب اللامع ينفث دخان نارجيلته بتوتر في الوسط.

تحدث الرجل قائلًا:

- عندما أخذت قراري في البداية بأن أراسلك، كان من الممكن أن أعطيك عنواني، لكني خشيت أن تتجاهلي طلبي وتحضري معك أشخاصًا لا يحبون لغة الحوار الراقي؛ لذا سمحت لنفسي بأن أرتب ذلك اللقاء بطريقة تسمح لمساعدي ويليامز بأن يراكم أولًا، فأنا أثق تمامًا في تكتمه،

وأعطيته أوامري بألا يستمر في تنفيذ الخطة إذا وجد ما لا يرضيه، فاعذروني على هذه الاحتياطات، لكني رجل أحب العزلة وليس هناك ما يزعجني أكثر من وجود رجال الشرطة. فلديَّ نفور طبيعي من كل صور المادية الخشنة، ونادرًا ما أختلط بالحشود الفظة؛ لذا فأنا أعيش .كما ترون. وسط جو من الرقي، وأعتبر نفسي راعيًا للفنون، فهي نقطة ضعفي. بالمناسبة هذا المنظر الطبيعي هو لوحة أصلية لكورو، ومع أن خبيرًا قد يشكك في أصالة لوحة سلفاتور روزا هذه، فإنه لا غبار على لوحة بوجيرو تلك، فأنا من المتحيزين للمدرسة الفرنسية المعاصرة.

قالت الآنسة مورستن في نفاد صبر:

- عذرًا يا سيد شولتو، ولكني قد جئت إلى هنا بناءً على طلبك لأسمع ما تريد إخباري به، والوقت متأخر جدًّا، وأنا أريد أن تكون تلك المقابلة قصيرة قدر المستطاع.

- يؤسفني أنها ستستغرق بعض الوقت؛ لأننا سنحتاج بالتأكيد للذهاب إلى نوروود لمقابلة أخي بارثلوميو، ويجب أن نذهب جميعًا ونرى إن كان بإمكاننا التغلب عليه وإقناعه، فهو غاضب جدًّا مني لأني سلكت الطريق الذي رأيته صحيحًا، وقد تشاجرت معه ليلة أمس. أنتم لا تتخيلون كم يصير شخصًا مريعًا عندما يكون غاضبًا.

تجرأت وقلت في حنق:

- إذا كنا سنذهب إلى نوروود فمن الأفضل أن ننطلق على الفور.

انفجر ضاحكًا حتى احمرت أذناه، وصاح من بين أسنانه المدببة:

- لن يصلح ذلك، فلا أعلم ما سيقول إن أحضرتكم بتلك الطريقة المباغتة؛ لذا من اللازم أولًا إطلاعكم على موقف كل منا بالنسبة إلى الآخر، ويجب أن أخبركم أن ثمة بعض النقاط المبهمة في القصة بالنسبة إليَّ، فما أستطيع فعله هو سرد الحقائق عليكم كما أعرفها فقط.

راح يسحب أنفاس النارجيلة، ثم بدأ يحكي:

- إن أبي هو الرائد جون شولتو كما خمنتم بالطبع وهو أحد ضباط الجيش السابقين في الهند، وقد تقاعد منذ ما يقرب من أحد عشر عامًا، ثم أتى ليستقر في بوندشيري لودج في أبر نوروود. جمع أبي ثروة طائلة في الهند، وعاد ومعه مبلغ ضخم من المال، ومجموعة كبيرة من التحف القيمة، وطاقم خدم من السكان المحليين، وبهذه المزايا اشترى لنفسه منزلًا، وعاش في ترف كبير، وأنا وتوءمي بارثلوميو ذريته الوحيدة.

ما زلت أتذكر تأثره البالغ باختفاء النقيب مورستن، فلقد قرأنا التفاصيل في الصحف، ولأننا نعلم أنه كان أحد أصدقاء والدنا، فقد ناقشنا القضية وكان يشترك معنا في تكهناتنا بشأن ما حدث، ولم نشك للحظة أنه يكتم سرًّا داخله، وأنه دون الجميع هو مَن يعرف مصير آرثر مورستن.

لكننا مع ذلك كنا نعلم أن لغزًا ما وخطرًا مؤكدًا يحيط بوالدنا، فقد كان يخشى جدًّا الخروج بمفرده، وكان يُعيِّن دائمًا حراسًا محترفين بمنزل بوندشيري لودج، فمثلًا، ويليامز الذي أحضركما إلى هنا الليلة، هو واحد من هؤلاء، فقد كان في وقت سابق بطل إنجلترا في الوزن الخفيف للملاكمة.

لم يفصح لنا أبونا أبدًا عما كان يخيفه، لكن كانت لديه كراهية شديدة وغير مبررة للرجال ذوي الأرجل الخشبية التعويضية، ففي إحدى المرات أطلق النار بالفعل على رجل ذي رجل خشبية،

اتضح فيما بعد أنه تاجر غير مؤذٍ يجمع الطلبات للاستيراد، واضطررنا إلى دفع مبلغ كبير من المال للتكتم على الأمر. اعتقدت أنا وأخي أن تلك مجرد نزوة عابرة لأبي، ولكن دفعتنا الأحداث لتغيير وجهة نظرنا هذه.

ابتسمت رغمًا عني، بينما تابع وهو يصوب نظراته على وجه الآنسة مورستن الشاحب:

- في مطلع عام ١٨٨٢، تلقى أبي خطابًا من الهند كان بمثابة صدمة كبيرة بالنسبة إليه، وكاد يفقد وعيه على طاولة الإفطار عندما فتحه، ومنذ هذا اليوم مرض حتى وافته المنية، واستطعت أن أرى وهو يمسكه أنه كان مقتضبًا ومكتوبًا بخط رديء.

لقد ظل أبي يعاني لسنوات، يعاني من تضخم الطحال والكبد، لكن حالته تدهورت بسرعة حينها، وفي نهاية شهر أبريل علمنا أنه لا أمل من شفائه، وأنه يريد أن يتحدث معنا للمرة الأخيرة.

وعندما دخلنا غرفته، كان يتنفس بصعوبة، وطلب منا أن نوصد الباب ونجلس على جانبَي فراشه، ثم أمسك بيدينا وقال كلامًا صادمًا بصوت خرج متهدجًا من التأثر والألم. سأحاول أن أعيد عليكم ما قاله بنفس كلماته.

ثم مسح دمعة عابرة بمنديل حريري فاخر، وأكمل:

- قال لنا أبي:

«يوجد أمر واحد يشغل ذهني في هذه اللحظة المهمة، وهو طريقة تعاملي مع ابنة مورستن المسكينة اليتيمة، فقد حال جشعي اللعين والذي كان خطيئتي التي لازمتني طوال حياتي. بينها وبين حصولها على الكنز الذي لها أحقية في نصفه على الأقل، ومع ذلك لم أستفد منه أنا نفسي، فالجشع حقًّا أعمى وغبي، وإحساس التملك في حد ذاته كان عزيزًا عليَّ، لدرجة أني لم أتحمل فكرة مشاركته مع شخص آخر، أتريان هذا العقد المرصع باللآلئ بجوار المزهرية؟ حتى هذا لم أتحمل فراقه، مع أني أخرجته بنية إرساله إليها.

أنتما يا بَنِي ستعطيانها حصتها العادلة من كنز مدينة أجرا، ولكن لا ترسلوا لها أي شيء حتى ذلك العقد إلا بعد وفاتي، فعلى كل حال هناك رجال كان حالهم على هذه الدرجة من السوء وتعافوا بعدها.

سأخبركم الآن كيف مات مورستن، فلقد كان يعاني منذ سنوات من ضعف في قلبه، لكنه أخفى ذلك عن الجميع، وأنا وحدي كنت أعرف، وعندما كنا في الهند وقع في حوزتنا أنا وهو، عقب سلسلة من الأحداث غير العادية، كنز ضخم أحضرته معي إلى إنجلترا، وليلة وصول مورستن أتى إليَّ على الفور ليطالب بحصته.

كان قد سار من المحطة إلى هنا، وأدخله خادمي المخلص لال شاودر، واختلفنا أنا ومورستن في الرأي بشأن حصة كل منا في الكنز، واحتدت بيننا المناقشة، ثم هب مورستن واقفًا من كرسيه في نوبة غضب، وفجأة ضغط بيده على جنبه واسود وجهه، ثم سقط للخلف وجرح رأسه من ارتطامه بحافة صندوق الكنز، وعندما ملت عليه فزعت؛ لأني وجدته ميتًا.

جلست لفترة طويلة مشوش الذهن تمامًا أتساءل عما يجب أن أفعله، وأول ما خطر ببالي بالطبع هو أن أطلب المساعدة، لكني لم أستطع تجنب فكرة أن احتمالات اتهامي بقتله كبيرة، فوفاته في أثناء الشجار والجرح الذي في رأسه سيؤخذان ضدي، وكذلك لا يمكن فتح تحقيق

رسمي دون انكشاف بعض الحقائق عن الكنز الذي كنا حريصين جدًّا على إبقائه سرًّا.

رحت أقلب الموضوع في رأسي، وعندما نظرت للأعل، رأيت خادمي لال شاودر واقفًا عند الباب، ثم دلف إلى الداخل وأقفل الباب وراءه، وقال: لا تخف يا رفيق لن يعرف أحد أنك قتلته، فلنخبئ جثته، ولن يعرف أحد، فقلت منكرًا غاضبًا إنني لم أقتله، فهز لال شاودر رأسه وابتسم قائلًا: لقد سمعت كل شيء يا رفيق، سمعتكما تتشاجران، وسمعت الضربة، لكني لن أخبر أحدًا، فجميع مَن في البيت نائمون، لنتخلص منه معًا.

كان هذا كافيًا لاتخاذ قرار فوري، فإذا كان خادمي نفسه لا يصدق براءتي، فكيف سأنجح في إقناع اثني عشر من الحمقى على منصة هيئة المحلفين؟!

تخلصت أنا ولال شاودر من الجثة تلك الليلة، وفي غضون بضعة أيام امتلأت صحف لندن بخبر الاختفاء الغامض للنقيب مورستن.

أنا بالكاد قد أُلام على وفاته الخطأ، لكن الذي أُلام عليه حقًّا هو إخفاء الجثة واحتفاظي بنصيب مورستن ونصيبي؛ لذا أريد منكما أن تردا الحق إلى صاحبته، والان قرِّبا أذنيكما من فمي، الكنز مخبأ في...».

وفي تلك اللحظة ظهر تعبير مريع على وجه أبي وهو يقطع عبارته، واتسعت عيناه عن آخرهما، وتدلى فكه وصرخ بصوت لن ينمحي أبدًا من ذاكرتي.

«أبقياه خارجًا بحق المسيح، لا تسمحا له بالدخول».

فنظر كلانا إلى النافذة التي يحدق فيها خلفنا، وكان ثمة وجه ينظر إلينا وسط الظلام. وجه ملتحٍ كثيف الشعر، عيناه قاسيتان، وارتسمت عليه ملامح الحقد الشديد، فاندفعت أنا وأخي تجاه النافذة، لكن الرجل كان قد اختفى، وعندما عدنا إلى والدنا كان رأسه متدليًا ونبضه متوقفًا.

فتشنا الحديقة تلك الليلة، ولكننا لم نجد أي أثر لذلك الدخيل، باستثناء بصمة قدم واحدة ظهرت في حوض الأزهار، ولولا ذلك الأثر، لكنا ظننا أن الوجه القاسي العنيف من وحي خيالنا، لكننا سرعان ما حصلنا على دليل مؤكد على أن ثمة أحد يفتش في بيتنا، فقد وجدنا نافذة غرفة أبي مفتوحة في صباح اليوم التالي، ودواليبه وصناديقه مبعثرة، ووجدنا فوق صدره ورقة ممزقة مكتوبًا عليها بخط واضح (علامة الأربعة)، ولم نعرف مطلقًا معنى هذه العبارة، ولا هوية الزائر السري، وعلى حد علمنا لم يسرق أي من ممتلكات أبي، وذلك على الرغم من أن كل شيء كان مقلوبًا رأسًا على عقب، وبطبيعة الحال ربطنا أنا وأخي بين هذا الحادث الغريب والخوف الذي طارد أبي طوال حياته، ولكنه ظل لغزًا بالنسبة لنا.

ثم توقف عن الكلام وراح يعيد إشعال نارجيلته، ثم نفث دخانها وهو ساهِم لبضع لحظات.

كنا جالسين جميعًا بانتباه نستمع لروايته العجيبة، وفي أثناء الجزء القصير من روايته الذي أتى فيه على ذكر وفاة والدها، شحب وجه الآنسة مورستن بشدة ولوهلة خشيت أن تفقد وعيها، بينما رجع شيرلوك هولمز إلى الوراء في كرسيه شارد الذهن وجفناه مرتخيان، وتذكرت وأنا أنظر إليه كيف كان يشتكي بمرارة في هذا اليوم بالتحديد، من أن الحياة عادية مكررة مبتذلة، فهذه على الأقل مشكلة كفيلة باستنفاد قدراته العقلية لأقصى حد ممكن.

نقل السيد ثاديوس شولتو نظره من أحدنا للآخر، وكان يبدو عليه تعبير غريب من الفخر بوقع قصته علينا، ثم تابع من بين نفثات نارجيلته قائلًا:

- كما لكم أن تتصوروا، كنت وأخي متحمسين جدًّا بخصوص الكنز الذي حدَّثنا عنه أبي، وظللنا لأسابيع وشهور نحفر وننقب عنه في كل جزء من الحديقة، لكننا لم نكتشف مكانه، ونحن حانقان من أن مكان إخفائه كان على طرف لسانه لحظة وفاته، فقد كان بإمكاننا تقدير مدى روعة الكنز المخبأ من ذلك العقد الذي كان قد أخرجه منها.

أجريت أنا وأخي بارثلوميو نقاشًا صغيرًا حول ذلك العقد، وقد كان من الواضح أن اللآلئ قيِّمة جدًّا، وهو معترض تمامًا على التخلي عنها، فهو بيني وبينكم كان يعاني شيئًا من علة أبي وجشعه، فقد كان يعتقد أنه إذا تخلينا عن هذا العقد، فقد يثير هذا الشائعات، ويورطنا في النهاية في مشكلات لا حصر لها، وكل ما استطعت فعله هو إقناعه بأن يدعني أستدل على عنوان الآنسة مورستن، وأرسل لها لؤلؤة من العقد على فترات زمنية ثابتة، حتى لا تشعر أبدًا بالفقر على الأقل.

قالت رفيقتنا بصدق:

- لقد كانت فكرة لطيفة. فقد كانت بالفعل لفتة طيبة للغاية منك.

أشاح الرجل الضئيل الحجم بيده معترضًا، وقال:

- لقد كنا كالأوصياء على نصيبك. هكذا كنت أنظر أنا إلى الأمر، لكن أخي بارثلوميو لم يكن يراه كذلك إطلاقًا، فقد كان لدينا قدر كافٍ من المال ولم أطمع في المزيد، علاوة على أنها ستكون قلة ذوق مني أن أعامل سيدة شابة بهذه الطريقة المتدنية، فكما يقول الفرنسيون «قلة الذوق تقود إلى الجريمة»، واختلفنا بشدة في الرأي حول ذلك الأمر، ورأيت أنه من الخير أن أستقل في مكان خاص بي؛ لذا تركت بوندتشيري لودج، مصطحبًا معي خادمي الهندي العجوز وويليامز، وعرفت يوم أمس بوقوع حدث جلل، وهو اكتشاف الكنز؛ لذا راسلت الآنسة مورستن على الفور، وكل ما تبقى أن نفعله هو أن ننطلق إلى نوروود لنطالب بحصتنا، فقد شرحت وجهة نظري أمس لبارثلوميو؛ لذا فهو يتوقع زيارتنا، وإن كان لا يرحب بها أبدًا.

توقف السيد ثاديوس شولتو عن الحديث، وجلس يتململ على أريكته الفخمة، وظللنا جميعًا صامتين نفكر في هذا التطور الجديد، وفي وقائع هذا الأمر الغامض. وكان هولمز أول مَن هب واقفًا وهو يقول:

- أحسنت صنعًا من البداية للنهاية يا سيدي، وقد نستطيع رد جزء من جميلك بتسليط بعض الضوء على الأمور التي لا تزال غامضة بالنسبة إليك، لكن كما أوضحت الآنسة مورستن، فالوقت متأخر، ومن الأفضل أن ننجز هذا الأمر دون تأخير.

لف رفيقنا الجديد أنبوب نرجيلته بتأنٍّ بالغ، وأخرج من خلف الستار معطفًا طويلًا بأزرار مجدولة وله ياقة وأكمام من الفراء، وأغلق أزرار معطفه بعناية، ومع أن الليلة كانت تقترب من نهايتها، فقد استكمل زيه بارتداء قلنسوة من جلد الأرنب لها طرفان متدليان يغطيان أذنيه، فكان لا يظهر منه إلا وجهه الشاحب المتغير التعبيرات.

كانت عربتنا منتظرة في الخارج، ويبدو أن خط سيرنا كان معدًّا مسبقًا، فقد انطلق السائق على الفور بسرعة كبيرة، وثاديوس شولتو يتحدث دون انقطاع بصوت يعلو على صوت صليل العجلات.

- بارثلوميو رجل ذكي لماح، وإلا كيف استطاع اكتشاف مكان الكنز إذن؟ لقد استنتج أن الكنز لا

بد أن يكون مخبأً داخل المنزل؛ لذا حسب مساحة المنزل المكعبة، وأخذ قياسات كل جزء منه بحيث لا يغفل عن بوصة واحدة، وقد وجد من ضمن ما وجد أن ارتفاع المبنى أربعة وسبعون قدمًا، ولكن عند جمع ارتفاعات الغرف المنفصلة، واحتساب مساحة التجويفات التي تأكد منها، لم يتعدَّ الناتج الإجمالي سبعين قدمًا، بل كان ثمة أربعة أقدام إضافية لم تُحسَب ضمن هذه المساحة، والمكان الوحيد الذي يمكن أن يوجد به الكنز هو الجزء العلوي من المبنى، وبالتالي أحدث فتحة في السقف المصنوع من الألواح الخشبية والجبس، وقد وجد بالتأكيد علية صغيرة كانت مغلقة ومعزولة ولا يعلم أحد بوجودها، وفي وسطها وجد صندوق الكنز مستقرًّا فوق عارضتين خشبيتين، ثم أنزله عبر الفتحة، وهكذا حصل على كنز من المجوهرات بما لا يقل عن نصف مليون جنيه إسترليني.

عندما ذكر ذلك الرقم الضخم نظرنا جميعًا إلى بعضنا وقد اتسعت أعيننا، فإذا استطعنا الحصول على حق الآنسة مورستن، فإنها ستتحول من مربية فقيرة الحال إلى أغنى وريثة في إنجلترا!

أعترف بخجل أن الأنانية أعمت روحي، ووقر في قلبي حزن شديد، فتمتمت ببعض كلمات التهنئة المتقطعة، ثم جلست مفطور القلب مطأطئ الرأس لا أسمع شيئًا من ثرثرة صديقنا الجديد.

من المؤكد أنه كان مصابًا بوسواس المرض، وكنت بالكاد أسمعه وأنا شارد الذهن، يسرد مجموعة لا متناهية من الأعراض، ويطلب معلومات عن تركيبة دوائية ما، وعن مفعول عدد كبير من العقاقير المغشوشة التي كان يحمل بعضها معه داخل حقيبة جلدية. ولا أتذكر أيًّا من الإجابات التي أعطيته إياها تلك الليلة، فهولمز يقول إنه سمعني أحذره من تناول أكثر من نقطتين من زيت الخروع، بينما نصحته بتناول جرعات كبيرة من الإستركنين كونه مهدئًا! وهو ما يدل على ضياع فكري كامل لطبيب في خبرتي!

على كل حال شعرت بالراحة عندما توقفت عربتنا بغتةً، ونزل السائق ليفتح لنا الباب.

قال السيد ثاديوس شولتو بفخر وهو يساعدها على النزول:

- أقدم لك منزل بوندشيري يا آنسة مورستن.

الفصل الخامس
مأساة منزل بوندشيري

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة مساءً عندما وصلنا إلى المحطة الأخيرة من مغامرتنا لهذه الليلة.

تركنا خلفنا ضباب المدينة المعبأ بالرطوبة، ووصلنا الى الجو الجميل الصافي في الضواحي، وفي تلك الليلة هبت رياح دافئة من جهة الغرب، وتحركت السحب الكثيفة ببطء في السماء، وكان جزء من القمر يسترق النظر من بينها أحيانًا.

كانت الرؤية واضحة أمامنا لمسافة كبيرة، لكن ثاديوس شولتو أخذ أحد المصابيح الجانبية للعربة؛ كي ينير لنا الطريق على نحو أفضل.

وقف منزل بوندشيري لودج شامخًا وسط الأراضي المحيطة به. يحيط به سور حجري شديد الارتفاع، وفي قمته نُثِرت قطع من زجاج مكسور، ويتوسط السور بوابة ضيقة لها دعامات حديدية طرقها مرشدنا بطريقة مميزة تشبه طرقة ساعي البريد.

صاح صوت أجش من الداخل:

- مَن بالباب؟

- هذا أنا يا مكموردو، لا بد أنك صرت تستطيع تمييز طرقتي الآن.

سمعنا صوت تبرُّم ثم صوت خشخشة وصرير المفاتيح، وفُتِح الباب ببطء، وظهر في مدخله رجل قصير عريض المنكبين، وسطع الضوء الأصفر للمصباح على وجهه ذي الملامح البارزة وعينيه اللامعتين المرتابتين.

- هذا أنت يا سيد ثاديوس، لكن مَن هؤلاء؟ فلم تردني أي تعليمات بشأنهم من سيدي!

- حقًّا؟! أنت تفاجئني، فلقد أخبرت أخي أمس أنني سأحضر معي بعض الأصدقاء.

- سيدي بارثلوميو لم يخرج من غرفته اليوم يا سيد ثاديوس، وليس لديَّ أوامر منه، وأنت تعلم جيدًا أني يجب أن ألتزم بالتعليمات؛ لذا يمكنني أن أسمح لك بالدخول، ولكن أصدقاءك يجب أن يبقوا مكانهم هنا.

كانت تلك عقبة غير متوقعة، وراح ثاديوس شولتو يتلفت حوله بارتباك وعجز، قائلًا:

- تصرُّفك هذا غير لائق يا مكموردو، فإذا كانوا أصدقائي فذلك يجب أن يكون كافيًا بالنسبة إليك، ثم إن معنا كذلك سيدة شابة لا يمكنها أن تنتظر في الطريق العام في مثل هذه الساعة المتأخرة.

فقال الحارس بإصرار:

- أنا آسف جدًّا يا سيد ثاديوس، فهم قد يكونون أصدقاءك ولكنهم ليسوا بالضرورة أصدقاء سيدي؟ وهو يدفع لي أجرًا جيدًا مقابل أن أؤدي عملي، فيجب عليَّ تأديته على أكمل وجه، ثم إنني لا أعرف أحدًا من أصدقائك هؤلاء.

صاح شيرلوك هولمز بلطف:

- بل تعرفنا جيدًا يا مكموردو، فلا أظن أنك قد نسيتني، ألا تتذكر الهاوي الذي لاكمك لثلاثة أشواط في منزل أليسون في الليلة التي كنت تلاكم فيها منذ أربعة أعوام؟

- الملاكم السيد شيرلوك هولمز! يا إلهي كيف لم أعرفك؟! أتذكرك عندما ضربتني ضربتك الخطافية الشهيرة تحت الفك، في الحقيقة لقد أهدرت مواهبك حقًّا، فكان يمكنك أن تكون ملاكمًا بطلًا إن أردت.

- أترى يا واطسون، إذا فشلت في كل شيء آخر فلا يزال المجال أمامي مفتوحًا في إحدى المهن الرياضية، والآن فأنا متأكد من أن صديقنا لن يتركنا منتظرين في البرد الآن.

أجاب الحارس في رفق غريب:

- تفضل بالدخول يا سيدي أنت وأصدقاؤك. أنا آسف جدًّا يا سيد ثاديوس، لكن الأوامر صارمة جدًّا، وكان يجب أن أتأكد من هوية أصدقائك قبل السماح لهم بالدخول.

بالداخل عبرنا ممرًّا مفروشًا بالحصى يمتد عبر أراضٍ قفراء إلى منزل ضخم مربع مصمت يجثم كالوحش، غارق كله في ظلام دامس إلا جانبًا واحدًا يسطع عليه شعاع القمر، وينعكس متلألئًا على إحدى نوافذ عليته.

سرت القشعريرة في جسدي؛ خوفًا من حجم البيت الضخم والظلام الذي يخيم عليه، وذلك الصمت المطبق الموجود حوله، حتى ثاديوس شولتو بدا مرتبكًا، وكان المصباح يرتجف ويخشخش في يده.

قال مرتبكًا:

- أنا لا أفهم، يبدو أن ثمة خطبًا ما، فلقد أخبرت بارثلوميو بوضوح أننا سنأتي، ومع ذلك نافذة غرفته مظلمة! لا أعلم ماذا يعني هذا؟!

- هل من عادته أن يشدد الحراسة على المكان بهذه الطريقة؟

قالها هولمز في هدوء، فنظر ثاديوس نحوه مجيبًا:

- بالتأكيد، فلقد حافظ على عادة أبي، وطوال عمره كان الابن المفضل لأبي، وأحيانًا كنت أعتقد أن أبي يخبره بأكثر مما يخبرني، وتلك النافذة العلوية التي ينعكس عليها ضوء القمر هي نافذة غرفة بارثلوميو، قد تبدو ساطعة لكني لا أعتقد أن الضوء قادم من داخلها.

قال هولمز:

- هذا صحيح. لكني أرى بصيصًا من الضوء في تلك النافذة التي بجوار الباب.

- آه، هذه غرفة مدبرة المنزل، فهذه هي الغرفة التي تسكنها السيدة بيرنستون العجوز، ويمكنها أن تخبرنا عن الأمر كله، لكن أرجو ألا تمانعوا الانتظار هنا لبضع دقائق، فهي لا علم لها بقدومنا وقد تفزع إذا دخلنا جميعًا معًا، لكن.. اصمتوا قليلًا.. ما هذا؟!

رفع المصباح وارتجفت يده لدرجة أن دوائر الضوء حولنا كانت ترتعش وتتذبذب، بينما أمسكت الآنسة مورستن بمعصمي ووقفنا جميعًا ترجف قلوبنا وتصغي آذاننا، فمن داخل المنزل المظلم الضخم شق سكون الليل أكثر الأصوات إثارة للحزن والشفقة، كان صوت أنين حاد

متهدج لامرأة خائفة.

قال مرافقنا السيد شولتو:

- إنها السيدة بيرنستون، فهي السيدة الوحيدة في المنزل. انتظروا هنا وسوف أعود سريعًا.

ثم هرع إلى الباب، وطرقه بطريقته المميزة التي استخدمها مع البوابة الصغيرة، ثم رأينا سيدة عجوزًا طويلة تفتح له الباب وتُدخِله، وتكاد تقفز من السعادة لرؤيته.

سمعناها تواصل في سعادة تكرار عبارات من قبيل: «سيد ثاديوس أنا سعيدة جدًّا بقدومك»، و «أنا سعيدة جدًّا بقدومك يا سيد ثاديوس العزيز»، إلى أن أُغلِق الباب وخفت صوتها حتى أصبح مجرد همهمة مكتومة.

حرك هولمز المصباح ببطء حوله، ونظر بتمعن إلى المنزل وإلى أكوام القمامة الكبيرة التي تملأ المكان، بينما وقفت أنا والآنسة مورستن معًا، وقد وضعت يدها بيدي في أريحية.

إن الحب أمر مدهش وغير مفهوم، فهانحن ذا شخصان لم يرَ أحدنا الآخر قبل ذلك اليوم، ولم نتبادل أي كلمات أو حتى نظرات إعجاب، ومع ذلك مد كل منا يده للآخر دون تفكير في ذلك الوقت العصيب، ومنذ ذلك الحين وأنا أتعجب من الأمر، لكني شعرت حينها أنه من البديهي تمامًا أن أمد يدي إليها، هذا أول ما جال بخاطري وقتها، وكما أخبرتني هي أيضًا مرارًا أن حدسها في هذا الوقت قادها إلى اللجوء إليَّ طلبًا للطمأنينة والحماية، وهكذا وقفنا وقد تشابكت أيدينا مثل الأطفال، والسلام في قلبَينا يطغى على الظلام المحيط بنا.

نظرت حولها، وقالت في خفوت:

- يا له من مكان غريب، فيبدو وكأن جميع جرذان إنجلترا أُطلِق سراحها هنا! أنا رأيت منظرًا مشابهًا بجوار تل بالقرب من مدينة بالارات؛ حيث كان يعمل المنقبون.

قال شيرلوك هولمز:

- ولنفس السبب فهذه آثار الباحثين عن الكنز، لا تنسيا أنهما ظلا ستة أعوام يبحثان عنه، ولا عجب إذن أن الأراضي مُجرَّفة كأراضي المحاجر.

في هذه اللحظة فُتِح باب المنزل، وخرج منه ثاديوس شولتو مهرولًا مادًّا يديه أمامه وفي عينيه نظرة رعب، ثم صرخ قائلًا:

- ثمة خطب ما في بارثلوميو، أنا خائف، وأعصابي لا تتحمل ذلك.

بدا وكأنه ينتحب من الخوف، وارتسمت على وجهه المتشنج الواهن الظاهر من ياقة معطفه المكسوة بالفراء ملامح الاستجداء العاجز كطفل مرعوب.

قال هولمز بأسلوبه الحاد الصارم:

- إذن لندخل إلى المنزل.

فأجابه ثاديوس شولتو بنبرة استجداء:

- نعم من فضلكم؛ فأنا لا أشعر بأني أهل لإعطاء التعليمات الآن.

تبعناه جميعًا إلى غرفة مدبرة المنزل التي كانت على الجانب الأيسر من الممر، ورأينا العجوز

تجول جيئةً وذهابًا بنظرة رعب على وجهها، وأصابعها تتحرك في اضطراب، ولكن بدا أن رؤيتها للآنسة مورستن كان لها وقع مريح عليها.

في الحقيقة، لم يرَ أحد من البشر ماري إلا وشعر بالراحة، عدا شيرلوك هولمز؛ إذا كان يمكن اعتباره من البشر!

صاحت المرأة وسط بكاء هستيري:

- بارك الله وجهك العذب الهادئ هذا. لقد ارتحت لرؤية شيء جميل، فقد عانيت كثيرًا اليوم.

ربتت رفيقتنا على يدها الرفيعة الجافة التي أنهكها العمل، وتمتمت ببعض كلمات المواساة الأنثوية اللطيفة، فأعادت الدم إلى وجنتيها الشاحبتين.

قالت المدبرة الخائفة مفسرة:

- لقد أغلق سيدي الباب على نفسه ولا يجيب أحدًا، وقد انتظرت طوال اليوم أن يستدعيني لأشاركه الشاي، لكن منذ ساعة خشيت أن يكون قد أصابه مكروه؛ لذا صعدت ونظرت من ثقب المفتاح، أرجوك، يجب أن تصعد يا سيد ثاديوس، يجب أن تصعد وترى بنفسك، فخلال عشر سنوات رأيت السيد بارثلوميو شولتو في فرحه وفي حزنه، لكني لم أرَ على وجهه أبدًا مثل ذلك التعبير.

أخذ شيرلوك هولمز المصباح وقادنا صاعدًا السلم، وفي طريقنا للصعود أخرج هولمز عدسته من جيبه مرتين، وفحص بدقة علامات بدت لي مجرد لطخات من التراب لا شكل لها على البساط بُنِّي اللون المفروش على الدرج، ثم انتقل ببطء من درجة إلى أخرى حاملًا المصباح وهو ينظر متفحصًا يمينًا ويسارًا، بينما ظلت الآنسة مورستن تسير في الخلف مع مدبرة المنزل الخائفة.

انتهت بنا درجات السلم إلى ممر طويل مستقيم، على يمينه عُلِّقت منسوجة جدارية هندية عليها صورة ضخمة وعلى يساره ثلاثة أبواب، فتقدم هولمز فيه بالطريقة البطيئة نفسها، بينما تبعناه عن قرب وظلالنا السوداء الطويلة تتسلل خلفنا في الممر.

كان الباب الثالث هو ما ننشده، فطرق هولمز الباب لكنه لم يتلقَّ إجابة، ثم أدار مقبض الباب وحاول فتحه عنوة، إلا أنه كان مغلقًا من الداخل بمزلاج عريض وقوي كما رأينا عندما قرَّبنا منه المصباح، ولم يكن ثقب المفتاح مغلقًا كليًّا فانحنى شيرلوك هولمز ينظر منه، وعلى الفور اعتدل واقفًا مُطلِقًا شهقة حادة.

قال بتأثر لم أرَه عليه في حياتي:

- هناك شيء خبيث في هذا الأمر يا واطسون!

انحنيت لأنظر من الثقب، ثم ارتددت للوراء برعب، فقد كان ضوء القمر يتدفق إلى داخل الغرفة، وكان يسطع بشعاع غامض ومريب على وجه يحدق بي، وجه مُعلَّق في الهواء كما بدا لي حينها؛ لأن الظلال كانت تغطي كل ما تحته، وجه كوجه رفيقنا ثاديوس نفسه، فقد رأيت الرأس المحدب اللامع نفسه يحيط به الشعر الأحمر الخشن نفسه، والملامح الشاحبة نفسها، إلا أن هذه الملامح كانت ترتسم عليها ابتسامة مريعة، ابتسامة ثابتة وغير طبيعية كانت تثير الرعب تحت ضوء القمر الذي ينير الغرفة.

كان الوجه يشبه وجه رفيقنا الضئيل الحجم، لدرجة أني التفت إليه لأتأكد من أنه معنا، ثم تذكرت أنه ذكر لنا أنه وأخاه توءمان.

قلت لهولمز في توتر:

- هذا مريع، ماذا تقترح أن نفعل؟

- يجب أن نحطم قفل الباب.

ثم اندفع نحوه بأقصى قوته ليرتطم به.

طقطق الباب ولكنه لم يتزعزع، فاندفعنا معًا نحوه مرة أخرى، وهذه المرة انكسر فجأة ووجدنا أنفسنا داخل غرفة بارثلوميو شولتو.

بدت الغرفة أمامنا وكأنها مُعدَّة للاستخدام كمعمل كيميائي، فقد رُصَّ صفان من القوارير ذات السدادات الزجاجية بجوار الحائط المقابل للباب، وكانت مواقد بنزن وأنابيب الاختبار وأوعية التقطير تملأ الطاولة، وفي الأركان كانت توجد زجاجات حمض موضوعة في سلال من الخوص، ويبدو أن إحدى هذه الزجاجات كانت مكسورة، فقد انسال منها سائل داكن اللون، والهواء مُعبَّأ برائحة نفاذة جدًّا تشبه رائحة القطران، وثمة بضع درجات سلم في أحد جوانب الغرفة وسط كومة من الألواح الخشبية والجبس، وفوقها ثمة فتحة في السقف تتسع لمرور رجل عبرها، وعند أسفل هذه الدرجات كان ثمة لفة كبيرة من الحبال ملقاة بإهمال، وبجوار الطاولة كان صاحب المنزل مُلقًى على كرسي خشبي بذراعين، ورأسه يميل على كتفه اليسرى، وعلى وجهه تلك الابتسامة المريعة الغامضة، بينما جسده متيبس وبارد، ومن الواضح أنه فارق الحياة منذ عدة ساعات.

بدا لي أن ملامحه لم تكن هي فحسب التي اتخذت شكلًا غريبًا، بل جميع أطرافه كذلك، وبجوار يده على الطاولة كانت توجد أداة غريبة تشبه عصا بنية ملساء لها رأس حجري مثل المطرقة، وهي مربوطة بغير عناية بحبل خشن وبجوارها كانت ورقة مقطوعة من دفتر ملاحظات، مكتوب عليها بعض الكلمات.

نظر إليها هولمز، ثم قال وهو يرفع حاجبيه بشدة:

- أترى؟

قرأت في ضوء المصباح بذعر نفس العبارة:

- علامة الأربعة! بحق الرب ماذا يعني ذلك كله؟!

أجاب وهو ينحني فوق الرجل الميت:

- يعني جريمة قتل كما توقعت، انظر هنا.

ثم أشار إلى شيء ما يشبه شوكة طويلة داكنة اللون مغروسة في جلد الرجل، فوق أذنه تحديدًا.

- تبدو مثل شوكة.

- هي كذلك يا دكتور. هلَّا يمكنك التقاطها، ولكن احذر، فهي مسممة.

أمسكتها بسبابتي وإبهامي، فخرجت من الجلد بسهولة لدرجة أنها بالكاد تركت أثرًا، وظهرت نقطة دم صغيرة في المكان الذي كانت تحتله.

- كل ذلك يمثل لغزًا غامضًا، بالنسبة إليَّ فالأمر يزداد غموضا مع الوقت وليس وضوحًا.

- بل على العكس يا واطسون، إنه يتضح أكثر في كل لحظة تمر. لا ينقصني غير بضعة روابط وتتضح أمامي القضية بأكملها.

وكأنما نسينا تقريبًا وجود رفيقنا التوءم منذ أن دخلنا إلى الحجرة، وعندما التفتنا نحوه، كان لا يزال واقفًا بالباب يعصر يديه وينتحب بصوت منخفض، وقد تجسد فيه الرعب، ولكن فجأة صرخ صرخة حادة متحسرة، وقال في لوعة:

- لقد اختفى الكنز، لقد سرقوا منه الكنز، هذه هي الفتحة التي أنزلناه منها فأنا ساعدته في ذلك، وكنت آخر مَن رآه. لقد تركته هنا مساء أمس وسمعته يوصد الباب وأنا أهبط الدرج.

- كم كانت الساعة وقتها؟

- تمام العاشرة، والآن وقد فارق الحياة، ستأتي الشرطة وسوف يشتبهون بأن لي يدًا في ذلك كله، نعم أنا متأكد من ذلك، لكنكما بالتأكيد لا تعتقدان ذلك أيها السيدان، بالتأكيد أنتما لا تعتقدان أني الفاعل، فهل كنت سأحضركم إلى هنا إن كنت أنا الفاعل؟! يا إلهي يا إلهي أعتقد أني سأُجَن.

نفض ذراعيه وضرب الأرض بقدميه في نوبة من الاهتياج الشديد، فوضع هولمز يده على كتفه وقال بلطف:

- لا داعي للقلق يا سيد شولتو، خذ بنصيحتي واذهب إلى الشرطة للإبلاغ عن هذا الأمر، وأبدِ استعدادك لتقديم أي مساعدة ممكنة، ونحن سوف ننتظر هنا حتى عودتك.

أومأ الرجل الضئيل الحجم برأسه وهو شبه مذهول، وسمعناه يتخبط في الظلام وهو ينزل الدرج.

بينما وقف هولمز يحدق باهتمام في جسد التوءم الذي فارق الحياة.

الفصل السادس
شيرلوك هولمز يُقدِّم برهانًا

قال هولمز وهو يفرك كفَّيْه:

- والآن يا واطسون لدينا نصف ساعة بمفردنا، دعنا نستغلها جيدًا، فكما أخبرتك القضية على وشك أن تكتمل، ولكن دعنا لا نرتكب خطأً بسبب الثقة الزائدة، فبقدر ما تبدو القضية بسيطة الآن بقدر ما قد يكون وراءها أمر أكثر تعقيدًا.

صحت مندهشًا:

- بسيطة!

قال بأسلوب يشبه أسلوب أستاذ طب يشرح لصف دراسي:

- بالطبع! فقط اجلس في ذلك الركن حتى لا تُعقِّد آثار أقدامك الأمر. والآن لنبدأ العمل. أولًا كيف دخل هؤلاء الأشخاص؟ وكيف خرجوا؟ فالباب لم يُفتَح منذ ليلة أمس! وماذا عن النافذة؟

ثم حمل المصباح متجهًا إليها وهو يتمتم بملاحظاته بصوت مسموع؛ كأنه يوجهها لنفسه وليس لي.

- النافذة مغلقة بمزلاج من الداخل، وإطارها متين، ولا توجد مفصلات جانبية لفتحها، كما لا توجد ماسورة مياه بجوارها والسطح لا يمكن الوصول إليه، ومع ذلك فقد دخل رجل عبر النافذة، فبعض الأمطار الخفيفة هطلت ليلة أمس وهناك بصمة قدم تظهر على عتبة النافذة، وهناك أيضًا علامة دائرية من الوحل، كما توجد واحدة أخرى هنا أيضًا على الأرض، وهنا بجوار الطاولة، أترى هذا يا واطسون، فهذا حقًّا إثبات قاطع.

نظرت إلى الأقراص الدائرية من الوحل الظاهرة بوضوح، وقلت:

- هذا ليس أثر قدم.

- بل هو أمر ذو قيمة أكبر من ذلك بالنسبة إلينا، إنه أثر ساق خشبية يا عزيزي! أترى هنا على عتبة النافذة، يوجد أثر حذاء طويل الرقبة وهو حذاء ثقيل له كعب معدني عريض وبجواره أثر القدم الخشبية.

- إذن فهو الرجل ذو الساق الخشبية.

- هذا صحيح، لكن كان معه شخص آخر، شريك قوي وبارع جدًّا. قل لي هل تستطيع تسلُّق ذلك الجدار يا دكتور؟

نظرت من النافذة المفتوحة، وكان ضوء القمر لا يزال يسطع ببهاء على تلك الزاوية من المنزل، ونحن على ارتفاع ستين قدمًا من الأرض، وبالنظر من مكاني لم أستطع رؤية أي موطئ قدم.

أجبت مؤكدًا:

- لا أحد يستطيع، فهذا مستحيل بالتأكيد.

- هو مستحيل دون مساعدة، لكن افترض أن لك صديقًا هنا بالأعلى رمى لك ذلك الحبل القوي الذي أراه في الركن، وذلك بعد أن ربط أحد طرفيه في هذا الخطاف الكبير المثبت في الحائط. أعتقد حينها أنك إن كنت رجلًا رياضيًّا فقد تستطيع التسلق لأعلى، حتى إن كان لك ساق خشبية تعويضية، فلا بد أنك اعتدت استخدامها، وستغادر أيضًا بالطريقة نفسها بالطبع، ثم سيسحب شريكك الحبل، ويفكه من الخطاف، ويغلق النافذة بالمزلاج من الداخل، ثم يهرب بالطريقة نفسها التي دخل بها.

ثم استطرد وهو يتفحص الحبل بأصابعه:

- هناك نقطة صغيرة جديرة بالملاحظة، وهي أن صاحبنا ذا الساق الخشبية مع أنه متسلق جيد لم يكن بحارًا محترفًا، فيده ليست خشنة كأيدي البحارة، فعدستي تظهر أكثر من علامة دموية على الحبال، خصوصًا بالقرب من نهاية الحبل، علامات نتجت من انزلاقه بسرعة كبيرة أدت إلى انتزاع الجلد من يديه.

- هذا كله عظيم ومنطقي، لكنه يجعل الأمور أكثر غموضًا من ذي قبل. ماذا عن ذلك الشريك الغامض، وكيف دخل إلى الغرفة؟

كرر هولمز مفكرًا:

- نعم الشريك، توجد بعض النقاط المثيرة للاهتمام بخصوص ذلك الشريك، فوجوده هو ما يخرج القضية عن طور المألوف، وأظن أن ذلك الشريك يسطر صفحات جديدة في تاريخ الجريمة بهذا البلد، مع أنه يحضر في ذهني ملابسات قضايا مشابهة من الهند، وإذا لم تخني الذاكرة من منطقة سينيجاميا.

كررت ملحًا:

- كيف دخل إذن؟ فالباب مغلق والنافذة لا يمكن الوصول إليها من الخارج، هل أتى من المدخنة؟

فأجاب:

- موقد المدفأة صغير جدًّا، لقد فكرت في ذلك الاحتمال بالفعل.

- إذن كيف بحق الشيطان؟

هز رأسه في بساطة متابعًا:

- أنت لا تطبق قواعدي كما نصحتك سابقًا، فكم مرة أخبرتك أنه عندما تستبعد الاحتمالات المستحيلة فما يتبقى لك مهما بدا غير محتمل لا بد أن يكون هو الحقيقة. نحن نعلم أنه لم يدخل من الباب ولا من النافذة ولا من المدخنة، ونعلم أيضًا أنه لم يكن مختبئًا في الغرفة لأنه لا يوجد بها أي مكان يمكن الاختباء فيه، إذن من أين دخل؟

صحت مستوعبًا:

- دخل من الفتحة التي في السقف.

- بالطبع، لا بد أنه أتى منها. والآن هلَّا تفضلت وحملت المصباح لي، فعلينا الآن أن نوسع نطاق

بحثنا ليشمل الغرفة العلوية، تلك الغرفة السرية التي كان الكنز مخبئًا بها.

ثم صعد درجات السلم، وأمسك بيديه عارضة خشبية، ورفع نفسه برشاقة إلى العلية، ثم رقد على بطنه ومد يده ليأخذ المصباح، وأمسك به في حين تبعته إليها وأنا أجاهد للصعود.

كان اتساع الحجرة التي وجدنا أنفسنا داخلها حوالي عشرة أقدام من أحد الجوانب وستة أقدام في الجانب الآخر، خاوية من أي أثاث، وأرضيتها مصنوعة من عوارض خشبية بينها طبقة رقيقة من الشرائح الخشبية والجبس؛ لذا عند المشي فوقها يضطر المرء لأن يخطو من عارضة للأخرى حتى لا يسقط، بينما امتد السقف لأعلى في شكل هرمي، وكان من الواضح أنه الهيكل الداخلي لسطح المنزل الفعلي، والأرضية مغطاة بطبقة سميكة من الغبار الذي تراكم على مر السنين.

قال شيرلوك هولمز مسندًا يده على السقف المائل:

- هانحن ذا، أترى هذا؟ إنه باب أفقي سحري يؤدي إلى السطح، ويمكن أن أدفعه وسنرى السطح نفسه يميل بزاوية بسيطة، فتلك هي إذن الطريقة التي دخل بها الرجل الأول، لنرَ إن كان بإمكاننا العثور على دلائل أخرى على كينونته.

خفض المصباح نحو الأرض، وبمجرد أن فعل رأيت للمرة الثانية في تلك الليلة على وجهه نظرة ذهول ودهشة، وبمجرد أن نظرت أنا الآخر في موضع نظره اقشعر بدني، فقد كانت الأرض مغطاة بكثافة بآثار أقدام حافية واضحة ومحددة ومكتملة التكوين لكن حجمها بالكاد نصف حجم قدم الرجل العادي!

قلت هامسًا لهولمز:

- هل ارتكب طفل ذلك الفعل الشنيع؟!

استجمع رباطة جأشه في ثوانٍ، وقال:

- أتفق معك أني ظننت ذلك وتشوش ذهني لوهلة، لكن الأمر طبيعي إن لم تسعفني الذاكرة، وإلا لكنت تنبأت بذلك. حسنًا، لم يعد هناك ما يمكن اكتشافه هنا، هيا بنا لننزل.

عدنا أدراجنا من جديد، فسألته بلهفة عندما عدنا إلى الغرفة السفلية:

- مرة أخرى، ما نظريتك إذن بخصوص آثار الأقدام تلك؟

قال بأسلوب ينم عن نفاد الصبر من ضيق أفقي:

- عزيزي واطسون، لمَ لا تجرب أن تقوم بالقليل من التحليل بنفسك؟ فأنت تعرف أساليبي، إذن طبِّقْها وسيكون من المفيد مقارنة النتائج.

- لا أستطيع الوصول لأي استنتاجات من الحقائق المتاحة.

- ستتضح لك الأمور لو حاولت، أعتقد أنه لم يتبقَّ شيء آخر له أهمية هنا، لكني سألقي نظرة إضافية على أي حال.

ثم أخرج عدسته وشريط قياس، وانكب على ركبتيه يجول في الغرفة كالكلب البوليسي، وهو يقيس ويقارن ويفحص ويكاد أنفه الطويل الرفيع يلامس الأرض وعيناه تلمعان وتضيقان كعينَي النسر.

حركاته خفيفة وصامتة وخاطفة كحركات كلب بوليسي بالفعل، وكأنما يقتفي أثر رائحة ما، حتى إنني تخيلت كم كان سيصبح مجرمًا عتيًّا لو كان قد كرس طاقاته وقدراته الذهنية ضد القانون، بدلًا من استخدامها للدفاع عنه.

راح يتمتم لنفسه في أثناء بحثه، ثم أخيرًا انطلقت منه صيحة فرح عالية:

- لقد حالفنا الحظ بكل تأكيد يا واطسون، فقد أوشكت مشكلتنا أن تُحَل. لقد داس الرجل الأول لسوء حظه في مادة القطران كما يمكنك أن ترى ذلك الخط الخارجي لقدمه الصغيرة هنا بجانب تلك الفوضى كريهة الرائحة، لقد شُرِخت القنينة كما ترى وتسرب منها السائل.

- وماذا في ذلك؟

- ببساطة لقد أمسكنا به، هذا كل ما في الأمر! فأنا أعرف كلبًا يمكنه أن يقتفي أثر تلك الرائحة حتى نهاية العالم، وإذا كان بإمكان قطيع من كلاب الصيد أن يقتفي أثر سمكة رنجة لمقاطعة كاملة، فما المسافة التي يمكن لكلب تلقى تدريبًا خاصًّا أن يقطعها متتبعًا رائحة نفاذة كتلك الرائحة؟ تبدو لي كمسألة تتطلب استخدام القاعدة الثلاثية الذهبية، فمن المفترض أن تكون الإجابة... لكن...

ثم قطع كلماته وهو يصيح:

- أهلًا، هاقد وصل الممثلون الرسميون للقانون.

سمعنا وقع خطوات ثقيلة وضجيج أصوات عاليًا قادمًا من الأسفل، وصفق باب الردهة محدثًا دويًّا عاليًا.

قال هولمز متعجلًا:

- بسرعة قبل أن يصلوا إلى هنا، تحسسْ ذراع ذلك المسكين هنا وساقه هنا، بمَ تشعر؟

- العضلات متيبسة كلوح خشبي، حتى بمجرد النظر.

- هذا صحيح أيها الطبيب البارع، إنها في حالة انقباض شديد يفوق تيبس الجثث المعتاد، أضِفْ إلى ذلك التعبير الغريب المرسوم على الوجه، فهذه الابتسامة المتشنجة تبدو مألوفة، فما الاستنتاج الذي يتبادر إلى ذهنك من هذا؟

أجبته في حماس:

- سبب الوفاة هو مادة شبه قلوية نباتية، مادة شبيهة بالإستركنين تسبب ابتسامة الكزاز هذه.

- هذا ما تبادر إلى ذهني منذ رأيت انقباض عضلات وجهه، ومنذ دخولي إلى الغرفة بحثت على الفور عن الطريقة التي دخل بها السم إلى جسده، وكما رأيت اكتشفت الشوكة التي غُرِست أو أُطلِقت بقوة ليست كبيرة على فروة رأسه، وستلاحظ أن الجزء الذي أصيب هو الجزء الذي يُفترَض أن يكون مقابلًا لفتحة السقف لو كان الرجل يجلس مستقيمًا في مقعده، والآن افحص الشوكة بسرعة.

تناولتها بحرص بالغ من جديد، وأمسكتها تحت ضوء المصباح.

كانت طويلة وحادة وسوداء، وطرفها الحاد يبدو لامعًا كما لو أن مادة صمغية قد جفت عليه، وطرفها غير الحاد قد سُنَّ بحدة باستخدام سكين.

- أهي شوكة من أصل إنجليزي يا واطسون؟

- لا، ليست كذلك بكل تأكيد.

- إذن فمن المُفترَض أن تساعدك كل هذه البيانات على التوصل إلى استنتاج قوي، ولكن هاقد وصل الجنود النظاميون.

ثم تابع بنبرته الساخرة الهادئة:

- يمكن للقوات المساعدة أن تتقهقر الآن.

وبينما كان يتحدث، علا صوت وقْع الخطوات التي كانت تقترب من الغرفة في الممر، ودلف إلى الغرفة رجل بدين ومهيب يرتدي بذلة رمادية، أحمر الوجه ضخم البنية ممتلئ، وعيناه الضيقتان اللامعتان تنظران بحدة من بين جفنيه المنتفخين المتورمين، ثم تبعه مباشرة مفتش يرتدي الزي الرسمي وثاديوس شولتو الذي كان لا يزال يرتجف.

صاح بصوت أجش مكتوم:

- هذا سيئ، هذا أمر سيئ، لكن مَن كل هؤلاء؟ لماذا يبدو المنزل مكتظًّا كجحر أرنب؟

قال شيرلوك هولمز بهدوء:

- أعتقد أنك تتذكرني يا سيد أثيلني جونز.

قال بصوت فيه أزيز مزعج:

- بالطبع أذكرك فأنت السيد شيرلوك هولمز الباحث النظري، نعم أتذكرك فأنا لن أنسى أبدًا كيف ألقيت علينا جميعًا محاضرة عن الأسباب والاستدلالات والآثار في قضية جوهرة بيشوب جيت. صحيح أنك وضعتنا على المسار السليم، لكن أعتقد أنك تقر الآن أن ذلك كان بمحض الصدفة السعيدة، وليس نتيجة حسن الاستدلال.

- لقد كان استدلالًا منطقيًّا بسيطًا.

- بربك لا تخجل من الإقرار بذلك ولا تكن متعجرفًا، لكن ما هذا؟ كل هذا سيئ، هذا أمر سيئ، إن ما أراه هنا ما هو إلا حقائق مجردة لا مجال للنظريات فيها. من الحظ السعيد أن تصادف وجودي في نوروود بسبب قضية أخرى، فقد كنت في مركز الشرطة عندما وصلت الرسالة، والآن ما سبب وفاته في رأيك؟

قال شيرلوك هولمز بفتور:

- هذه قضية بالكاد تحتاج إليَّ، ربما يمكنكم حلها بسهولة.

- لا، لا، فأنا مع ذلك لا أنكر أنك تصيب كبد الحقيقة أحيانًا، يا إلهي! أكان الباب مغلقًا حسبما فهمت؟ وفُقِدت مجوهرات قيمتها نصف مليون جنيه؟! وماذا عن النافذة؟

- كانت مغلقة بإحكام لكن هناك آثار أقدام على عتبتها.

أجاب بها هولمز من بين أسنانه، فقال ذو الصوت المزعج:

- إذا كانت مغلقة بإحكام فلا بد أن آثار الأقدام هذه لا علاقة لها بالأمر. هذا هو التفكير المنطقي. قد يكون الرجل قد تُوفِّي جراء نوبة قلبية، ولكن المجوهرات مفقودة. حسنًا، لديَّ

نظرية، فأنا تأتيني هذه التجليات أحيانًا. والآن هلَّا غادرت الغرفة أيها المفتش أنت والسيد شولتو، ويمكن لصديقك أن يبقى هنا يا هولمز. ما رأيك في هذا؟ لقد كان شولتو باعترافه برفقة أخيه ليلة أمس، وقد تُوفِّي الأخ بنوبة قلبية وعلى إثر ذلك غادر شولتو ومعه الكنز، ما رأيك بهذا؟

فأجابه هولمز بهدوء:

- بالطبع، ثم بعدها قام المُتوفَّى متفضلًا ليغلق الباب.

- حسنًا، هناك خطأ ما هنا، فلننظر للأمر بنظرة منطقية، فقد كان ثاديوس شولتو برفقة أخيه، ودار شجار بينهما، ثم تُوفِّي الأخ على إثره، واختفت المجوهرات، ولم يرَ أحد الأخ منذ أن تركه ثاديوس، كما أنه لم ينم في سريره، وثاديوس يبدو عليه الاضطراب لأقصى درجة، أما بالنسبة إلى مظهره، حسنًا، فإنه ليس جذابًا كما ترى. أنا أنسج شباكي حول ثاديوس وقد بدأ الخناق يضيق عليه.

قال هولمز في غيظ:

- أنت لم تطلع على الحقائق كلها بعد، فهذه الشوكة التي لديَّ أسباب كافية للاعتقاد بأنها مسمومة. كانت مغروسة في فروة رأس الرجل؛ حيث لا يزال بإمكانك رؤية أثرها، وهذه البطاقة المكتوب فيها هذا الكلام كما ترى كانت موضوعة على الطاولة، وبجوارها تلك الأداة الغريبة ذات الرأس الحجري، فأين كل ذلك من نظريتك؟

قال المحقق البدين بخيلاء مجيبًا:

- كل هذا يؤكدها من جميع النواحي، فالمنزل مليء بالتحف الهندية وقد أحضر ثاديوس هذه معه إلى هنا، وإذا كانت تلك الشوكة مسممة فمن المحتمل أن ثاديوس استخدمها للقتل مثلما كان سيفعل أي شخص آخر في مكانه، أما البطاقة فهي محض هراء، خدعة لتضليلنا على الأرجح، بينما السؤال الوحيد هو: كيف غادر؟ بالطبع هناك فتحة في السقف.

ثم وبمجهود وافر نظرًا لحجمه الضخم. صعد درجات السلم، وحشر نفسه عبر الفتحة ليدخل إلى العلية، وبعدها على الفور سمعنا صوته المغتبط يعلن أنه وجد الباب الأفقي السحري المؤدي إلى السطح.

علَّق هولمز وهو يهز كتفيه قائلًا:

- على الأقل يمكنه اكتشاف بعض الأشياء، وقد تمر بعقله السميك لمحات من ذكاء من حين لآخر.

ثم أردف بالفرنسية:

- عزيزي واطسون، إن أكثر الناس إزعاجًا هم الحمقى الذين يمتلكون قدرًا من الذكاء.

قال أثيلني جونز وهو يهبط السلم:

- أترى؟ في النهاية الحقائق أفضل بكثير من النظريات المجردة المبنية على استدلال أجوف، فلقد تأكد رأيي في تلك القضية، ثمة باب أفقي يؤدي إلى السطح وهو مفتوح جزئيًّا.

- أنا مَن فتحته يا سيدي.

- حسنًا، بالطبع قد لاحظته إذن.

بدا محبطًا من هذا الاكتشاف بعض الشيء، ثم قال من جديد:

- حسنًا، بصرف النظر عمَّن اكتشفه، هو يوضح كيف هرب المجرم، يا أيها المفتش...

رد الصوت من الممر:

- أمرك يا سيدي.

- اطلب من السيد شولتو أن يأتي إلى هنا.

دخل ثاديوس وهو يرتجف من فرط الخوف والقلق، فقال جونز في خيلاء:

- سيد شولتو، من واجبي أن أخبرك بأن أي شيء تقوله قد يؤخذ ضدك في المحكمة، فأنت مقبوض عليك باسم حكومة جلالة الملكة؛ لتورطك في قتل أخيك.

صاح الرجل الضئيل المسكين وهو يُقلِّب كفيه وينظر إلينا ملتاعًا:

- أرأيتما؟! ألم أقل لكما؟!

قال هولمز مُطمئِنًا:

- لا تقلق بهذا الشأن يا سيد شولتو، فأظن أن بإمكاني التدخل لتبرئتك من هذه التهمة.

قال الشرطي جونز بحدة:

- لا تقطع وعودًا كبيرة أيها الباحث النظري. لا تقطع وعودًا كبيرة، فقد تجد الأمر أصعب مما تصورته.

- لن أبرئه فحسب سيد جونز، بل سأقدم لك أيضًا على طبق من فضة اسم وأوصاف أحد الرجلين اللذين كانا في هذه الغرفة مساء أمس، فأنا لديَّ الأسباب الكافية التي تدفعني إلى الاعتقاد بأن اسمه هو جوناثان سمول، وهو رجل تلقى قدرًا بسيطًا من التعليم، وضئيل الحجم، ونشيط الحركة، وساقه اليمنى مبتورة، ويرتدي ساقًا خشبية مهترئة من الجانب الداخلي، وحذاؤه الأيسر طويل الرقبة له نعل قاسٍ مقدمته مربعة، ومثبت في كعبه شريحة حديدية، وهو رجل في منتصف عمره وكان مسجونًا، حسنًا، هذه الدلالات القليلة قد تساعدكم، هذا بالإضافة إلى أن جزءًا كبيرًا من جلد كفيه منزوع، أما الرجل الآخر...

- هناك رجل آخر إذن، أطرِبْ أذني.

قال هولمز وهو يستدير:

- الرجل الآخر هو شخص مثير للاهتمام للغاية، وآمل أن أستطيع أن أعرفك إلى كليهما عما قريب. هل تسمح لي بكلمة على انفراد يا واطسون؟

قادني خارج الغرفة إلى قمة الدرج، ثم قال:

- إن هذا الحدث غير المتوقع جعلنا نشيح بنظرنا عن الهدف الأصلي من رحلتنا هذه.

أجبت:

- لقد كنت أفكر في الشيء نفسه، وليس من اللائق أن تبقى الآنسة مورستن في ذلك المنزل

المشئوم.

- هذا صحيح، يجب أن تصحبها لبيتها، فهي تعيش مع السيدة سيسل فورستر في لوير كامبرويل، وهذا ليس بعيدًا جدًّا عن هنا. سوف أنتظرك هنا إذا كنت تنوي العودة، أو ربما تكون متعبًا جدًّا فأقابلك في شارع بيكر.

- لا أظن أني سأستريح قبل أن أعرف أكثر عن هذا الأمر الغريب. لقد كشفت لي الحياة من قبل شيئًا من جانبها المظلم القاسي، لكني أقسم لك بأن هذا التتابع السريع للمفاجآت الغريبة الليلة أفقدني هدوء أعصابي تمامًا، ومع ذلك أرغب في أن أمضي معك في هذا الأمر حتى النهاية بعد أن وصلت بالفعل إلى تلك المرحلة.

نظر نحوي متابعًا:

- سيساعدني وجودك كثيرًا، فسوف نعمل على كشف خبايا القضية بمفردنا وسنترك السيد جونز يطارد أي سراب يُخيَّل له. والآن استمِعْ إليَّ، فبعد أن توصل الآنسة مورستن؛ أريدك أن تذهب إلى المنزل رقم (٣) بشارع بينشن لين بالقرب من ضفة النهر في لامبيث، فالمنزل الثالث على الصف الأيمن هو منزل خاص بمُحنِّط طيور اسمه شيرمان، وسترى في نافذته ابن عرس يمسك بأرنب صغير كنموذج محنط، سوف تطرق الباب وتوقظه من نومه، وأخبِرْه أني أريد توبي على الفور، وأحضر توبي معك في العربة، ولا تنسَ أن تبلغ شيرمان تحياتي.

- توبي هذا كلب، أليس كذلك؟

ابتسم ساخرًا من ذكائي الخارق، وتابع:

- كلب هجين غير عادي يمتلك حاسة شم مذهلة، وأنا أُفضِّل أن أحظى بمساعدة توبي عن أن أحظى بمساعدة قوة شرطة سكوتلانديارد كلها.

- سأحضره لك إذن. إنها الواحدة الآن، ومن المفترض أن أعود قبل الثالثة إذا ألقى الحظ في طريقي حصانًا نشطًا يجر عربة سريعة.

- وأنا سأرى ما يمكنني معرفته من السيدة بيرنستون والخادم الهندي الذي أخبرني السيد ثاديوس بأنه يبيت في العلية المجاورة لمخبأ الكنز، ثم سأدرس أساليب جونز العظيم وأستمع إلى تهكماته الغليظة.

ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة جذل، وهو يتابع:

- لطالما كان جوته فصيح اللسان حين قال: «لقد اعتدنا أن نرى الناس الجهلاء يسخرون مما لا يفهمونه».

الفصل السابع
حادثة البرميل

اصطحبت الآنسة مورستن إلى بيتها في سيارة الأجرة، السيارة التي كان رجال الشرطة قد أحضروها معهم.

بذلك الأسلوب الملائكي الذي يميز النساء، كانت تواجه مشكلاتها بوجه هادئ، فكانت تجلس مبتهجة وهادئة بجوار مدبرة المنزل الخائفة، لكننا ما إن دخلنا العربة، شحب وجهها أولًا ثم انفجرت في نوبة من البكاء المكتوم، فقد أتعبتها كثيرًا مغامرتنا في تلك الليلة، وأخبرتني بعدها أنها رأتني باردًا ومتحفظًا في أثناء تلك الرحلة، فلم تكن تعرف بالصراع الذي احتدم في صدري أو بالمجهود الذي بذلته في ضبط نفسي؛ لأمنع نفسي من الإفصاح عن تعاطفي وميلي لها، كما فعلت يدي في الحديقة.

كنت أشعر أن أعوامًا من التعاملات التقليدية الحياتية لم تكن لتُظهِر لي طبيعتها العذبة الشجاعة مثلما فعل ذلك اليوم المليء بالتجارب الغريبة، لكن كانت هناك فكرتان تمنعان كلمات الحب من مغادرة شفتي؛ فقد كانت في حالة ضعف وعجز، وعقلها مشوش وأعصابها متوترة، والبوح لها بحبي في ذلك الوقت سيكون استغلالًا لضعفها.

والأسوأ من هذا أنها كانت على وشك أن تكون غنية، فإن نجحت مساعي هولمز فستصبح وريثة ميسورة الحال، فهل سيكون من الإنصاف أو الشهامة أن يستغل جراح بسيط يتقاضى نصف أجره تلك اللحظة العاطفية التي وضعتها الفرصة في طريقه؟

أليس من الممكن أن أبدو في نظرها مجرد شخص دنيء باحث عن الثراء؟

لم أستطع المجازفة بأن تَرِد على بالها تلك الفكرة، فقد كان كنز أجرا هذا يقف بيننا كسد منيع.

كانت الساعة تقترب من الثانية صباحًا عندما وصلنا إلى منزل السيدة سيسل فورستر، والخدم قد خلدوا للنوم منذ عدة ساعات، لكن على العكس، كانت السيدة فورستر مهتمة جدًّا بالرسالة الغريبة التي تلقتها الآنسة مورستن، لدرجة أنها ظلت مستيقظة تنتظر عودتها، وفتحت لنا الباب بنفسها!

كانت سيدة أنيقة في منتصف العمر، وأسعدني أن أرى كيف أحاطت بذراعها خصر ماري بحنان وحيتها بصوت ينم عن حنان كحنان الأم؛ فمن الواضح أنها لم تكن تعُدُّها مجرد عاملة أجيرة، بل صديقة تُكِن لها الاحترام والحب.

عرَّفتني ماري إلى السيدة فورستر، والتي أصرت بشدة أن أدخل وأحكي لها مغامراتنا، إلا أني شرحت لها أهمية مهمتي، وقطعت لها وعدًا بأن أمُر عليها لأبلغها بأي تطورات قد تحدث في القضية.

استرقت النظر خلفي والعربة تسير مبتعدة، فرأيتهما لا تزالان واقفتين على عتبة الباب.

السيدتان الأنيقتان اللتان تقفان وقد تشبثت كل منهما بالأخرى، والباب الموارب، وضوء الردهة الذي يسطع خلف الزجاج المزخرف، ومقياس الضغط الجوي المُعلَّق أمام الباب، وقضبان

الدرج الزاهية. أنها صورة مريحة وآمنة، وقد كان من المريح أن أحظى ولو بلمحة عابرة لمنزل إنجليزي هادئ في وسط تلك القضية الجامحة الغامضة التي انغمسنا فيها.

وكلما فكرت فيما حدث؛ وجدت القضية تزداد جموحًا وغموضًا، واسترجعت سلسلة الأحداث الغريبة كلها، بينما كانت العربة تسير مُصدِرة ضجيجها المعتاد عبر الشوارع الصامتة المضاءة بمصابيح الغاز، رحت أفكر في المشكلة الأصلية، وهذه على الأقل اتضحت الآن، وهي موت النقيب مورستن وإرسال اللآلئ والإعلان والخطاب، فكل تلك الأحداث اتضحت لنا، لكنها قادتنا إلى لغز أعمق وأكثر مأساوية بكثير، وهو الكنز الهندي والخريطة الغريبة التي وُجِدت بين أمتعة مورستن، والمشهد الغريب الذي شوهد في أثناء وفاة الرائد شولتو، وإعادة اكتشاف الكنز مرة أخرى، والتي تلاها مقتل مكتشفه والملابسات الغريبة التي صاحبت الجريمة، وآثار الأقدام والأسلحة المميزة، والكلمات المكتوبة على البطاقة التي تتوافق مع تلك المكتوبة على مخطط النقيب مورستن.

هي بكل تأكيد متاهة، وأي رجل لا يتمتع بمثل المهارات التي يتمتع بها رفيقي في السكن، كان ليصيبه اليأس من إيجاد مفتاح حلها.

مرت العربة الآن في شارع بينشن لين، وهو عبارة عن صف من المنازل الآيلة للسقوط ذات الطابقين المبنية من الطوب في المنطقة الجنوبية من لامبيث، وقد احتجت لأن أطرق باب المنزل رقم (٣) لوقت طويل قبل أن تأتيني استجابة، لكن أخيرًا رأيت وميض شمعة خلف ستار النافذة العلوية وظهر وجه منها صائحًا:

- اذهب من هنا أيها المتشرد السكير، وإذا طرقت الباب مرة أخرى فسوف أفتح بيت الكلاب، وأطلق عليك ثلاثة وأربعين كلبًا.

قلت مفسرًا:

- لقد أتيت من أجل الحصول على واحد منها فقط.

صاح الصوت من جديد:

- اذهب من هنا، فلديَّ حية سامة في حقيبتي تلك، وسألقيها على رأسك إن لم تغادر بسرعة.

صحت محتجًّا:

- لكني أريد كلبًا فقط.

فصاح السيد شيرمان محذرًا:

- لن أقبل أي نقاش الآن، والآن ابتعِدْ لأني سأعد حتى ثلاثة، ثم أرمي الحية.

بادرته بسرعة قبل أن يحترق فتيل أعصابه:

- السيد شيرلوك هولمز.

كان لتلك الكلمات وقع سحري؛ فقد أغلق النافذة على الفور، وفي خلال دقيقة انفتح الباب وظهر على عتبته السيد شيرمان!

كان السيد شيرمان رجلًا عجوزًا طويلًا نحيفًا، محني الكتفين، له رقبة نحيلة، ويرتدي نظارات ذات زجاج أزرق.

قال باشًّا:

- أي صديق للسيد شيرلوك هولمز مرحب به في أي وقت. تفضَّلْ بالدخول يا سيدي، لكن ابقَ بعيدًا عن الغرير فهو يعض، أنت أيها الخبيث أتريد عض ذلك السيد؟!

قال هذا لحيوان غرير شرس يقبع في قفص معدني، فدفع الحيوان رأسه الكريه وعينيه الحمراوين بين قضبان قفصه، وهو يتابع:

- لا تهتم لأمر ذلك الشيء، فهو مجرد حيوان قذر أعمى البصر وليس له أنياب؛ لذا أتركه يجوب الغرفة ليخلصني من الخنافس.

- مفهوم مفهوم.

- لا تؤاخذني بفظاظتي معك في البداية، فالأطفال أولاد الأبالسة يضايقونني، والعديد منهم يأتون إلى هنا فقط كي يقرعوا بابي ويقضُّوا مضجعي، والآن، ماذا يريد السيد شيرلوك هولمز يا سيدي؟

- يريد أحد كلابك في بعض الأعمال.

- آه، بالتأكيد يقصد توبي.

- أجل، توبي على ما أتذكر.

أشار بيده اليسرى فتبعته، فمشى إلى اليسار ببطء بين عائلة من الحيوانات الغريبة التي أحاط نفسه بها وهو يحمل شمعته، وفي الضوء الخافت الظليل كنت أرى عيونًا محدقة لامعة تسترق النظر إلينا من كل حدب وصوب، فحتى عوارض السقف الخشبية فوقنا كانت تصطف عليها بوقار قبيلة من البوم تنقل وزنها من قدم إلى أخرى بتكاسل بعد أن أقضَّت أصواتنا مضجعها.

اتضح أن توبي حيوان قبيح طويل الشعر، وهو هجين من سلالتي السبانيل والجواس، لونه بني وأبيض وله مشية متهادية ثقيلة تشبه مشية النمر، وقد قَبِل مني بعد تردُّد قطعة من الحلوى ناولني إياها عالم الطبيعة العجوز، وبعد أن تعارفنا بذلك، تبعني إلى العربة ولم يُبدِ أي اعتراض على مرافقتي؛ كأنني أنا مَن ربيته منذ نعومة مخالبه.

كانت ساعة القصر قد دقت الثالثة لتوها عندما وجدت نفسي أمام بونديتشري لودج مرة أخرى، وقد علمت أن الملاكم السابق مكموردو قد أُلقِي القبض عليه باعتباره شريكًا في الجريمة، واقتيد هو والسيد شولتو إلى القسم، وقد وقف يحرس الباب الضيق شرطيان، لكنهما سمحا لي بالمرور ومعي الكلب عندما ذكرت اسم المحقق.

كان هولمز يقف على عتبة الباب يدخن غليونه ويداه في جيبيه، فلما رآني قال:

- ممتاز، لقد أحضرت الكلب، وهو أمر جيد، فلقد غادر أثيلني جونز بعد أن هاج وراح يعيث فسادًا في أرجاء القصر، فلم يكتفِ فحسب باعتقال صديقنا شولتو، بل اعتقل أيضًا حارس البوابة ومدبرة المنزل والخادم الهندي، وهكذا أصبح المكان فارغًا أمامنا الآن، إلا من رقيب في الطابق العلوي. والآن اترك الكلب هنا وتعالَ معي لأعلى.

ربطنا توبي في رجل طاولة الردهة، وصعدنا السلالم مرة أخرى، وكانت الغرفة كما تركها؛ باستثناء أن الجثة غُطِّيت بملاءة بيضاء، وفي ركن الغرفة وقف الرقيب متكئًا على الحائط، وقد بدت عليه أمارات التعب.

قال رفيقي هولمز في هدوء:

- هلَّا أعرتني مصباحك أيها الرقيب، والآن اربط هذه البطاقة حول عنقي كي تبقى أمامي طوال الوقت، نعم هكذا، شكرًا لك، والآن عليَّ أن أخلع حذائي وجواربي، فسوف أتسلق قليلًا وسأغمس منديلي في الكيروزوت فهذا سيفي بالغرض، والآن اصعد معي إلى العلية لدقيقة يا واطسون.

صعدنا عبر الفتحة، ووجَّه هولمز مصباحه مرة أخرى إلى آثار الأقدام الظاهرة في الغبار، ثم قال:

- هل تلاحظ ما يلفت نظرك في آثار الأقدام هذه على وجه التحديد؟

- يبدو أنها تعود لطفل أو لامرأة ضئيلة الحجم.

- بعيدًا عن حجمها، ألا تلاحظ شيئًا آخر؟

- تبدو لي مثل أي آثار أقدام أخرى.

طقطق بشفتيه معترضًا، وتابع:

- على الإطلاق، انظر هنا ودقِّق النظر، هذه أثر قدم يمنى في الغبار. والآن سأترك بجواره أثر قدمي الحافية، وأتركك تلاحظ الاختلاف الجوهري بينهما.

ثم وضع قدمه بجوار الأثر وأنا أحاول إيجاد ذلك الاختلاف، ثم قلت معقبًا:

- أصابع قدمك قريبة من بعضها البعض، أما أصابع القدم الأخرى فمتباعدة.

- أصبت يا عزيزي واطسون، فهذا ما قصدته، والآن هلَّا ذهبت إلى تلك النافذة وشممت حافة إطارها الخشبي، سوف أبقى هنا لأني أحمل في يدي ذلك المنديل الملوث.

فعلت كما قال، ولاحظت على الفور رائحة قوية تشبه رائحة القطران.

- والآن انزل السلم وفُك وثاق الكلب، وترقَّب عرضًا بهلوانيًّا مثيرًا.

نزلت إلى الكلب وفككت وثاقه، وخرجت به من باب المنزل، وعندما أصبحت خارجه، كان شيرلوك هولمز على السطح الخارجي، وأراه يزحف ببطء على الحافة مثل سحلية يافعة، ثم توارى عن نظري خلف صف من المداخن، لكنه عاود الظهور، ثم اختفى مرة أخرى على الجانب المقابل، وعندما حثثت الخطى وذهبت إلى هناك وجدته جالسًا على إفريز جانبي.

فلما رآني صاح:

- أهذا أنت يا واطسون؟

- نعم، أنا.

نظر إلى الأسفل، ثم صاح:

- ما هذا الشيء الأسود بالأسفل؟

- إنه برميل مياه.

- وهل عليه غطاؤه؟

نظرت إلى البرميل، ثم صحت مجيبًا:

- نعم، الغطاء موجود.

- هل ترى أي أثر لأي سلم؟

- لا، لا يوجد آثار.

- تبًّا لذلك الرجل، فهذا مكان شديد الخطورة، ولكني يفترض أن أتمكن من النزول من حيث تسلق هو.. تبدو ماسورة المياه تلك متينة سأنزل عليها على أي حال.

سمعت صوت احتكاك أقدامه، ثم بدأ المصباح ينزل بوقع ثابت إلى جانب الحائط، وبوثبة رشيقة نزل على سطح البرميل ومنه إلى الأرض.

ناولته حذاءه وجواربه، فقال:

- كان من السهل تتبُّع المسار، فقد كان القرميد متخلخلًا على طول الطريق، وفي أثناء فراره ومن شدة عجلته؛ سقط منه هذا الشيء، وكما تقولون يا معشر الأطباء، هذا يؤكد تشخيصي.

كان الشيء الذي رفعه أمامي جرابًا أو كيسًا منسوجًا من العشب الملون مربوطًا عليه بضع خرزات رخيصة، ولم يكن يختلف كثيرًا عن علبة السجائر في شكله وحجمه، وداخله وجدنا نصف دستة من الشوكات الخشبية الداكنة أحد طرفيها حاد، والآخر مدور مثل تلك التي أصابت بارثلوميو شولتو.

- احترِسْ يا واطسون؛ فهذه الأشياء شيطانية، احترِسْ كي لا تخز نفسك، في الحقيقة أنا سعيد بأنها وقعت في قبضتي؛ لأنه على الأرجح ليس معه غيرها، وهكذا لم يعد هناك احتمال أن أجد أنا أو أنت إحدى تلك الشوكات مغروسة في جلدنا عما قريب، فأنا أُفضِّل الإصابة برصاصة من بندقية مارتيني على أن أُصاب بواحدة منها.

ثم سرح في الأفق قليلًا، وتابع:

- هل تستطيع السير لمسافة ستة أميال يا واطسون؟ أعني هل ستتحمل ساقك هذه المسافة؟

- أجل، بكل تأكيد.

- توبي.. تعالَ أيها العجوز.

جاء توبي يقر في رضًا وهو يمسح رأسه في ساقَي هولمز، فدفع الأخير بالمنديل المغموس بالقطران نحو أنف الكلب، بينما وقف الكلب مباعدًا بين أقدامه المكسوة بالفراء وأمال رأسه جانبًا بطريقة كوميدية؛ كخبير يشم عبق نبيذ شهير معتق، ثم بعد ذلك رمى هولمز المنديل بعيدًا، وربط حبلًا متينًا في طوق الكلب الهجين، وقاده إلى قاعدة برميل المياه، وعلى الفور أطلق الكلب نباحًا عاليًا مضطربًا متتابعًا، وانطلق على إثر الرائحة خافضًا أنفه إلى الأرض، ورافعًا ذيله في الهواء بسرعة جعلت الحبل مشدودًا، وجعلتنا نسير بأقصى سرعتنا؛ كي نلاحقه.

كان الأفق جهة الشرق ينير تدريجيًّا، وكشف ضوءه الرمادي البارد الطريق أمامنا بعض الشيء، ورحنا نحث الخطى تاركين خلفنا المنزل المربع الضخم بنوافذه المعتمة والفارغة وجدرانه العالية العارية، كان يبدو بائسًا مهجورًا؛ كأنه أرملة عجوز.

قادنا طريقنا عبر الأراضي المحيطة بالمنزل، ومنها إلى الخنادق والحُفَر التي كانت تملؤها

وتتقاطع فيها، فبدا المكان كله بأكوام التراب المتناثرة في أنحائه وشجيراته الذابلة مُدمَّرًا ومنحوسًا، وكأنه يتماشى تمامًا مع المأساة السوداء التي حدثت فيه.

عندما وصلنا إلى السور المحيط بالقصر، جرى توبي بمحاذاته وهو يطلق أنينًا مبتهجًا، ثم توقف أخيرًا عند زاوية تحجبها إحدى أشجار الزان اليافعة، وفي زاوية التقاء جدارين بالسور عثرنا على بعض قطع الطوب وقد نُزِعت من مكانها كاشفة الشقوق التي خلَّفتها تبدو متآكلة ومستديرة الحواف، وكأنما استُخدِمت كسلم مرتجل مرارًا وتكرارًا.

تسلقها هولمز ثم أشار إلى توبي، فناولته الكلب ليحمله وينزله على الجانب الآخر.

قال معلقًا وأنا أصعد على السور بجواره:

- هذه بصمة الرجل ذي القدم الخشبية، أترى لطخة الدم الصغيرة هذه على الجبس الأبيض؟ لقد حالفنا الحظ؛ فلم تسقط أمطار غزيرة منذ أمس، وهكذا سيظل أثر الرائحة موجودًا على الطريق؛ على الرغم من مرور ثمانٍ وعشرين ساعة على هروبهما.

في تلك اللحظة، أُقِر بأن الشك ساورني عندما فكرت في حركة المرور المزدحمة في شوارع لندن خلال تلك الفترة الزمنية، لكن مخاوفي تبددت سريعًا، فالسيد توبي لم يتردد للحظة، بل ظل على مشيته الثقيلة العجيبة، فمن الواضح أن رائحة الكيروزوت النفاذة كانت تطغى على ما سواها من الروائح الأخرى المتداخلة.

قال هولمز مُفسِّرًا:

- لا تظن أني أعتمد على احتمال أن أحد هذين الشخصين داس بقدمه في هذه المادة الكيميائية فقط في حل هذه القضية، فلديَّ من المعلومات الآن ما يكفل لي تعقُّبهما بعدة طرق مختلفة، لكن هذه هي الطريقة الأسهل، وبما أن الحظ وضعها بين أيدينا، فسأكون مذنبًا في حق القتيل وحق نفسي لو تجاهلتها، لكنها في الحقيقة حالت دون تحوُّل هذه القضية إلى المشكلة التي تتطلب جهدًا ذهنيًّا كما بدت لي في بدايتها، ولولا ذلك الدليل الدامغ لكنت نسبت لنفسي بعض الفضل في حلها.

قلت وأنا ألهث محاولًا اللحاق بهما:

- بل فضلك يكفي ويفيض يا صديقي، فأنا أؤكد لك يا هولمز أن أساليبك في التوصل للنتائج في تلك القضية تذهلني أكثر حتى من أساليبك في جريمة القتل التي ارتكبها جيفرسون هوب، فالأمر كله يبدو لي أكثر تعقيدًا وغموضًا، قل لي بحق السماء، كيف تمكنت من وصف الرجل ذي الساق الخشبية بكل هذه الدقة؟!

- يا عزيزي واطسون، لقد كان ذلك هو البساطة بعينها.

ثم تابع مبتسمًا في ثقة، وعيناه تشعان بذلك البريق الأخاذ:

- لا أرغب بأن يبدو أسلوبي مسرحيًّا، فالأمر كله جلي وواضح كالشمس، فقد علم الضابطان المسئولان عن حراسة السجن بسر مهم عن كنز مدفون، وقد رسم رجل إنجليزي اسمه جوناثان سمول لهما خريطة له، فكما تذكر رأينا اسمه مكتوبًا على المخطط الذي وُجِد ضمن متعلقات النقيب مورستن، وقد وقَّع على هذا المخطط باسمه وبالنيابة عن شركائه، واختار لها اسمًا له وقع درامي أخاذ، وهو: علامة الأربعة، وبمساعدة هذا المخطط حصل الضابطان أو

بالأحرى أحدهما على الكنز، وأتى به إلى إنجلترا دون أن يفي بالشرط الذي من أجله حصل على الخريطة، ولكن لماذا لم يُخرِج جوناثان سمول الكنز بنفسه إذن؟ الإجابة واضحة، إن تاريخ المخطط أو الخريطة يعود إلى وقت كان يعمل فيه مورستن مع المساجين عن قرب، فلم يُخرِج جوناثان سمول الكنز بنفسه؛ لأنه هو وشركاؤه كانوا مسجونين، ولم يكن بإمكانهم الهروب من السجن.

- لكن هذا مجرد تخمين يا شيرلوك.

- بل هو أكثر من ذلك، فتلك هي الفرضية الوحيدة التي تتماشى مع الحقائق، والآن لنرَ كيف تتماشى مع باقي الأحداث، فقد ظل الرائد شولتو يعيش في سلام لعدة سنوات، ويعيش سعيدًا وفي حوزته الكنز، ثم يتلقى خطابًا من الهند يثير رعبه، فماذا كانت محتويات الخطاب إذن؟

- خطاب يفيد بأن الرجال الذين خانهم قد أُطلِق سراحهم وقادمون للانتقام.

- أو أنهم هربوا وهذا هو الأرجح؛ لأنه كان يعلم مدة عقوبتهم، ولم يكن ليُفاجَأ بخروجهم من السجن بهذه البساطة، فلا بد أنه خطط لذلك جيدًا وهو يهرب بكنزه، ولكن الخطاب وصله، فماذا فعل؟ حينها بدأ يحمي نفسه من رجل ذي ساق خشبية، رجل أبيض؛ لأنه ببساطة خلط بينه وبين تاجر أبيض، بل أطلق عليه النار بالفعل وقتها، والآن ذلك المخطط يحوي اسم رجل أبيض واحد فقط، والأسماء الأخرى تعود لهنود، هندوس أو مسلمين، ولا يوجد رجل أبيض غيره، ومن ثَم يمكننا القول بكل ثقة إن الرجل ذا الساق الخشبية هو نفسه جوناثان سمول، هل يبدو لك ذلك الاستدلال المنطقي خاطئًا أو مجرد تكهنات؟!

كنت مفتوح الفم كالأبله، ثم أجبته في خفوت:

- لا، بل هو واضح وموجز.

كانت عيناه الآن تشردان في الفراغ وهو يتابع:

- والآن لنضع أنفسنا مكان السيد جوناثان سمول، لننظر إلى الأمور من وجهة نظره، فلقد أتى إلى إنجلترا بغرض استعادة ما اعتبره حقًّا له، وكذلك للانتقام من الرجل الذي أخطأ في حقه، فاكتشف مكان إقامة شولتو، ومن المحتمل أن يكون قد تواصل مع أحد الأشخاص من داخل المنزل ليصبح جاسوسًا له، قد يكون رئيس الخدم الذي لم نقابله، فالسيدة بيرنستون تعتقد بأنه شخص سيئ، لكن سمول لم يستطع اكتشاف مكان إخفاء الكنز؛ لأن أحدًا لم يعرفه باستثناء الرائد وخادمه المخلص الذي تُوفِّي، وفجأة يعلم سمول أن الرائد شولتو على فراش الموت، وفي خضم خوفه من أن يموت سر الكنز معه يباغت الحارسين، ويشق طريقه إلى نافذة الرجل الذي يرقد على مشارف الموت، ولم يمنعه من الدخول سوى وجود ابنيه، إلا أنه بسبب غضبه الشديد من الرجل المُتوفَّى يدخل الغرفة في تلك الليلة، ويفتش أوراقه الخاصة؛ على أمل إيجاد أي ملحوظة عن الكنز، وأخيرًا يترك تذكارًا لزيارته، تلك الكتابة التي تركها على البطاقة، فقد كان ينوي دون شك تَرْك ملاحظة كتلك على جثة الرائد حال قتله؛ للدلالة على أنها لم تكن جريمة قتل عادية، بل هي تحقيق للعدالة من وجهة نظر الشركاء الأربعة، في الحقيقة تكاد سجلات الجريمة لا تخلو من مثل تلك الأفعال المتغطرسة الغريبة والشاذة، وعادةً ما تحمل مؤشرات قوية على المجرم، والآن هل تتابع ما أقوله أو أنك شارد الذهن؟

- لا، أتابعك بكل وضوح.

- هذا ما ظننته.

كانت ابتسامته تملأ وجهه النحيل الطويل، وهو يتابع:

- والآن، ما الذي يمكن أن يفعله جوناثان سمول بعد موت شولتو الكبير؟ لم يسعه إلا أن يراقب سرًّا. محاولات العثور على الكنز؛ فمن المحتمل أنه كان يغادر إنجلترا ويعود إليها على فترات متباعدة، ثم أتى أمر اكتشاف الكنز في العلية، وقد أبلغه به جاسوسه على الفور، بينما جوناثان عاجز تمامًا عن بلوغ حجرة بارثلوميو شولتو المرتفعة؛ بسبب ساقه الخشبية؛ لذا اصطحب معه شريكًا مثيرًا للاهتمام، استطاع تخطي تلك العقبة، لكنه داس بقدمه العارية في القطران، وهنا يأتي دور السيد توبي والرحلة لمسافة ستة أميال التي قطعها ضابط طبيب أعرج يتقاضى نصف أجر، ولديه إصابة في وتر أخيل بصحبة هولمز النشيط.

ابتسمت رغمًا عني، وسألته:

- إذن، فالشريك هو مَن ارتكب الجريمة، وليس جوناثان سمول؟

- بالضبط، وقد أثار ذلك امتعاض جوناثان، وهو ما يتضح من مشيته الغاضبة عندما دخل إلى الغرفة، فهو لم يكن يحمل أي ضغينة لبارثلوميو شولتو، وكان يُفضِّل تقييده وتكميم فمه، ولم يرغب في أن يودي بحياته، لكنه لم يستطع فعل شيء، فقد أطلق شريكه بالفعل العنان لغرائزه الهمجية وأدى السم وظيفته؛ لذا ترك جوناثان سمول توقيعه وأنزل صندوق الكنز إلى الأرض ونزل وراءه، وكان هذا هو تسلسُل الأحداث كما تسنى لي تفسيرها، أما بالنسبة إلى هيئته، فلا بد وأنه رجل في منتصف العمر، ولا بد أن تكون قد لفحته الشمس بعد أن قضى مدة عقوبته في مكان شديد الحرارة مثل جزر أندمان، أما بالنسبة إلى طوله فيمكن حسابه بسهولة من طول خطوته، كما نعلم أيضًا أنه ملتحٍ، فقد كانت غزارة الشعر في وجهه هي أكثر ما ترك انطباعًا لدى ثاديوس شولتو عندما رآه عند النافذة، هذا كل ما أعرفه حاليًّا.

- والشريك؟

سألته في انبهار، فأجاب ببساطة:

- إن هويته لا تمثل لغزًا كبيرًا، ولكنك قريبًا ستعرف كل شيء عنه.

ثم نظر للسماء وهو يتشمم الهواء حولنا، متابعًا:

- يا لجمال نسمات الصباح! أترى كيف تطفو تلك السحابة الصغيرة مثل ريشة زهرية من طائر فلامنجو عملاق، وها هو إطار الشمس الأحمر يشق طريقه عبر سحب لندن الكثيفة ويشرق ضوءها على سكانها؟ لكني أراهن أنه لا يوجد من بينهم مَن لديه مهمة أغرب من مهمتنا تلك. كم نشعر بضآلة طموحاتنا ومساعينا أمام قوى الطبيعة العظيمة، قل لي، هل أنت ملم بأعمال جون بول ريتشر؟

- الكاتب الرومانسي الألماني، نعم، إلى حد كبير.

- إن له ملاحظة غريبة ولكنها عميقة، وهي أن أعظم دليل على عظمة الإنسان الحقيقية يكمن في إدراكه لمدى ضآلته، أرأيت العبقرية؟ فهي كما ترى تشير إلى ضرورة عقد المقارنات، وتقدير الذات بشكل حقيقي، والتي بدورها دليل على النبل.

ثم راح ينظر حوله وهو يتابع:

- هناك الكثير مما يدعو للتأمل في أفكار ريتشر، قل لي، هل معك مسدس؟

- معي عصاي.

- قد نحتاج لها كسلاح إذا وصلنا إلى عقر دارهم، سوف أترك لك أمر جوناثان سمول، لكن إذا تصرف الرجل الآخر بوحشية فسأرديه صريعًا.

ثم أخرج مسدسه وهو يتحدث ووضع به رصاصتين، ثم أعاده إلى جيب معطفه الأيمن.

طوال ذلك الوقت، كنا نتبع توبي عبر الشوارع شبه الريفية التي تحدها الفيلات، وتقودنا إلى الحضر، لكننا بدأنا بعدها نسير في شوارع متواصلة متشابهة؛ حيث كان عمال البناء وعمال الميناء قد خرجوا بالفعل إلى أعمالهم، والمومسات قد بدأن في إسدال ستائر نوافذ بيوتهن وكنس مداخلها، وفي الساحة عند الناصية كانت الحانات قد بدأت تفتح أبوابها، وكان الرجال قساة المظهر يخرجون منها وهم يمسحون لحاهم بأكمامهم بعد احتسائهم لمشروبهم الكحولي الصباحي، وكانت كلاب الشوارع تتسكع مُحدِّقة فينا باستغراب، لكن كلبنا الفريد توبي لم يتلفت يمينًا أو يسارًا، بل ظل يهرول إلى الأمام وأنفه إلى الأرض، ويُطلِق من آنٍ لآخر أنينًا مبتهجًا يدل على أنه وجد أثر رائحة قوية.

قطعنا أحياء ستريتهام وبريكستون وكمبرويل، والآن وجدنا أنفسنا في شارع كينجزتون لين، وبعد أن تنقلنا عبر الشوارع الجانبية شرق ملعب الكريكيت البيضاوي، فيبدو أن الرجلين اللذين كنا في إثرهما أخذا طريقًا متعرجًا غالبًا؛ بغرض الاختباء عن الأعين؛ فهما لم يلتزما قط بالسير في الطريق الرئيس؛ إذ أن هناك شارع جانبي موازٍ يؤدي إلى وجهتهم، وفي نهاية شارع كينجزتون لين سارا جهة اليسار عبر شارع بوند وشارع مايلز؛ حيث يؤدي ذلك الأخير إلى نايتس بالاس.

توقف توبي عن التقدم للأمام، وبدأ يعدو جيئةً وذهابًا، وهو يرفع إحدى أذنيه ويرخي الأخرى في تجسيد مثالي لتردُّد الكلاب، ثم بدأ يمشي في دوائر ويرفع نظره إلينا من حين لآخر؛ كما لو أنه يستجدي تعاطفنا في موقفه الحرج.

صاح هولمز متذمرًا:

- ما خطب ذلك الكلب بحق الجحيم؟ بالتأكيد هما لم يركبا عربة أو يستقلا منطادًا.

- ربما وقفا هنا لبعض الوقت.

- يبدو أن السيد توبي قد شعر بتذمر هولمز واهتزاز ثقته به، فكان رده عمليًّا.

انطلق إلى الأمام من جديد، فبعد أن ظل يشم محيطنا مرة أخرى أخذ قراره فجأة، وانطلق مسرعًا بهمة وإصرار أكثر من ذي قبل، وقد بدا أن الرائحة أصبحت أقوى، حتى إنه لم يضطر لأن يقرب أنفه من الأرض، بل زمجر وهو يحاول الركض بسرعة، بينما كنت أرى تلك اللمعة في عين هولمز، والتي تقول بوضوح إننا اقتربنا بشدة.

كنا نسير الآن عبر منطقة ناين إلمز، حتى وصلنا إلى مستودع أخشاب برودريك آند نيلسون الكبير بعد حانة وايت إيجل.

وهنا اندفع الكلب وقد انتابه حماس شديد عبر البوابة الجانبية إلى داخل السياج؛ حيث كان ناشرو الأخشاب قد بدءوا عملهم بالفعل، واستمر الكلب في العدو بين النشارة والبرادة، ثم في زقاق، ثم في ممر، ثم بين كومتين من الأخشاب، وأخيرًا وبنباح المنتصر، قفز فوق برميل ضخم

كان لا يزال في مكانه فوق العربة اليدوية التي حملته إلى هذا المكان، ووقف توبي فوق البرميل مدليًا لسانه وطارفًا عينيه وهو ينظر لنا منتظرًا أي لفتة امتنان.

كان جسم البرميل وعجلات العربة اليدوية ملطخين بسائل داكن اللون، وكانت رائحة القطران تملأ الهواء.

نظر كل منا إلى الآخر في ذهول غير مصدقين لما نراه!

ثم انفجرنا معًا في نوبة من الضحك الهستيري.

الفصل الثامن
قوات شارع بيكر غير النظامية

بعد أن هدأت نوبة الضحك الهستيري، نظرت إلى هولمز قائلًا:

- ماذا سنفعل الآن؟ لقد فقد توبي حاسته المميزة، وقادنا إلى برميل في مستودع!

قال هولمز وهو ينزله من فوق البرميل ويقتاده إلى خارج مستودع الأخشاب:

- لا تقسُ عليه، فلقد تصرف وفق معطياته؛ خاصةً إذا وضعت بعين الاعتبار كمية القطران التي تنقل حول لندن طوال اليوم، فلن تتعجب كثيرًا أن الأثر الذي نقتفيه اختلط بآخر. لقد أصبح استخدامه شائعًا هذه الأيام؛ خاصةً لتجفيف الأخشاب؛ لذا لا يجب أن نلوم توبي المسكين.

- إذن، فأنا أعتقد أننا يجب أن نعود لاقتفاء أثر الرائحة الأصلية؟

أومأ هولمز برأسه موافقًا، ثم تابع:

- بالتأكيد، ولحسن الحظ لن نضطر للسير لمسافة طويلة، فمن الواضح أن ما أثار ارتباك الكلب عند ناصية نايتس بالاس هو وجود أثرين مختلفين للرائحة نفسها يسيران في اتجاهين متعاكسين، وبما أننا تبعنا الأثر الخاطئ من قبل، فلم يبقَ لنا الآن إلا أن نتبع الآخر.

بالفعل لم نجد صعوبة في ذلك، فحين اقتدنا توبي إلى المكان الذي أخطأ فيه، بدأ يدور في دائرة كبيرة، ثم انطلق أخيرًا في اتجاه جديد.

قلت ملاحظًا:

- يجب أن ننتبه؛ كي لا يقودنا إلى المكان الذي أتى منه برميل القطران.

- لقد فكرت في هذا، لكنك إذا نظرت فستلاحظ أنه يسير على الرصيف في الاتجاه المعاكس؛ لذا فنحن نتبع الرائحة الأصلية الآن.

قادنا توبي إلى ضفة النهر بين بيلمونت بلايس وشارع برينس، وفي نهاية شارع برود، ركض حتى وصل إلى حافة الماء؛ حيث يوجد مرفأ خشبي صغير، ووقف يعوي وهو ينظر إلى تيار النهر الداكن تحته.

قال هولمز في إحباط:

- لم يسعفنا الوقت، فقد استقلا مركبًا من هنا.

كان هناك عدة قوارب صغيرة منتشرة على سطح الماء، وعند حافة الرصيف أخذنا توبي إلى كل منها بالترتيب، وعلى الرغم من أنه كان يشم بهمة، لم يُبدِ أي إشارة.

وبالقرب من رصيف المرسى البدائي، كان يوجد منزل صغير مبني من الطوب عُلِّقت في نافذته الثانية لافتة خشبية مكتوب عليها بأحرف كبيرة (موريخاي سميث)، وتحتها عبارة (قوارب للإيجار بالساعة أو باليوم)، وعلمنا من عبارة أخرى مكتوبة فوق الباب أن لديهم زورقًا بخاريًّا

متاحًا للإيجار، وقد أكد تلك العبارة وجود كومة كبيرة من الفحم على الرصيف البحري.

تلفت شيرلوك هولمز حوله ببطء، وارتسم على وجهه تعبير غاضب، قائلًا:

- هذا يبدو سيئًا، فهذان الرجلان أذكى مما توقعت، ويبدو أنهما أخفيا أثرهما جيدًا. أخشى أن ما حدث كان بتخطيط مسبق.

كان يقترب من باب المنزل، عندما انفتح الباب وخرج منه صبي صغير مجعد الشعر يعدو هاربًا، وتلحق به امرأة بدينة محتقنة الوجه، وفي يدها إسفنجة كبيرة صائحة في شراسة:

- عد إلى هنا لتستحم يا جاك، عد إلى هنا أيها التعس، فإذا عاد أبوك إلى المنزل ورآك هكذا فسيوبخنا.

أوقف هولمز الصبي وهو يربت على رأسه الصغير، قائلًا:

- يا لك من صبي جميل شقي! قل لي يا جاك، أهناك ما يمكنني أن أساعدك به؟

فكَّر الصغير لبرهة، وقال:

- أريد شلنًا.

- شلنًا فقط، ألا تفكر في شيء أكبر؟

راح يحك رأسه من جديد، ثم قال:

- نعم، أريد شلنين.

- إذن هاك الشلنين.

ثم منحه الشلنين وهو يبتسم للسيدة البدينة، متابعًا:

- يا له من طفل ذكي! أعتقد أنكِ السيدة سميث، صغيرك ذكي ورائع يا سيدتي.

- بوركت يا سيدي المحترم، بل هو أكثر من رائع، لكنه صعب المراس ويصير من الصعب السيطرة عليه؛ خصوصًا عندما يغيب زوجي لأيام كثيرة.

قال هولمز بصوت ينم عن خيبة الأمل:

- أهو غائب، هذا مؤسف، فقد أردت الحديث مع السيد سميث.

- لقد خرج منذ صباح أمس يا سيدي، ولا أخفيك أني بدأت أقلق عليه، لكن إذا كنت تريده بخصوص قارب يا سيدي؛ فأنا أيضًا يمكنني خدمتك.

- في الحقيقة، لقد أردت استئجار زورقه البخاري.

بدا على وجهها المحتقن ملامح خيبة الأمل، وقالت:

- مع الأسف يا سيدي، فلقد ذهب موردخاي في الزورق البخاري يا سيدي، وهذا ما يحيرني، فأنا أعلم أن ما به من فحم يكفي بالكاد لرحلة ذهاب وعودة من ولويتش، فلو كان قد ذهب في القارب الكبير ما كنت لأقلق، ففي العديد من المرات تضطره مهمة عمل للذهاب بعيدًا حتى جريفسيند، وإذا كان لديه الكثير من العمل فقد يبيت هناك.

- قد يكون اشترى بعضًا من الفحم من رصيف آخر على النهر.

هزت رأسها الضخم نافية، وتابعت:

- هذا ليس من طبعه، فقد سمعته عدة مرات يتذمر من الأسعار التي يطلبونها مقابل مجرد بضعة أكياس من الفحم، علاوة على أني لا أرتاح لذلك الرجل ذي الساق الخشبية بوجهه القبيح ولكنته الغريبة، فماذا يريد بالتردد علينا هنا طوال الوقت؟!

قال هولمز متصنعًا تعبيرات الدهشة على وجهه في براعة:

- رجل ذو ساق خشبية!

- أجل يا سيدي، رجل أسمر البشرة قبيح الوجه أتى إلى هنا أكثر من مرة ليقابل زوجي، وهو مَن أيقظه مساء أمس، والأغرب من هذا أن زوجي كان يعلم بقدومه؛ لأنه كان قد جهَّز الزورق، بصراحة يا سيدي لست مطمئنة لذلك الأمر.

قال هولمز وهو يهز كتفيه في لا مبالاة:

- لكن يا عزيزتي السيدة سميث ليس هناك ما يستدعي القلق، فكيف عرفت أن مَن أتى مساء أمس كان هو الرجل ذو الساق الخشبية؟ لا أفهم كيف تأكدت أنه هو!

- من صوته يا سيدي، فهو خشن ومبحوح نوعًا ما.

ثم راحت تمثل ما ظنت أن ذا الساق الخشبية قد فعله قائلة:

- طرق على النافذة في حوالي الساعة الثالثة وقال: «استيقِظْ يا صاحِ، حان موعد تغيير نوبة الحراسة، ثم أيقظ زوجي الفتى جيم ابننا البكر، وغادرا دون أن ينطقا بكلمة واحدة، ثم سمعت صوت طقطقة الساق الخشبية على الحجارة الصغيرة بجوار المرفأ.

- وهل تعتقدين أن الرجل ذا الساق الخشبية هذا كان بمفرده؟

هرشت شعرها المنكوش، ثم تابعت في حيرة:

- لست متأكدة يا سيدي، ولكني لم أسمع صوت أحد آخر.

- أنا آسف يا سيدة سميث، فقد كنت أريد استئجار زورق بخاري، وقد سمعت كلامًا جيدًا عن زورقكم ال... ماذا كان اسمه؟

كان هولمز يمثل دور الجاهل الحائر بامتياز، بينما تابعت:

- اسمه (أوروورا) يا سيدي الكريم.

- آه، نعم، أوروورا، أهو ذلك الزورق القديم الأخضر الذي به خط أصفر ومقدمته عريضة جدًّا؟

هزت رأسها نافيه فتطايرت منه الأتربة وفضلات الفحم، وهي تقول:

- كلا يا سيدي، في الواقع هو صغير الحجم مثل أي زورق آخر هنا في النهر، ولقد طُلِي حديثًا بالأسود وبه خطان أحمران.

ابتسم هولمز، وحانت منه التفاتة جانبية لي، وهو يتابع:

- شكرًا لكِ سيدة سميث، وأتمنى أن تسمعي أخبارًا طيبة عن السيد سميث قريبًا، أما أنا فسوف أبحر في النهر بزورق آخر، وإذا صادفت الزورق (أوروورا) فسأخبر زوجك بأنك قلقة بشأنه، عفوًا لقد قلت إن مدخنة الزورق سوداء أليس كذلك.

- لا يا سيدي، بل سوداء وبها شريط أبيض.

- بالطبع، فجوانبه هي السوداء بلا أشرطة، عمت صباحًا يا سيدة سميث. أرى مراكبيًّا معه زورق نهري هناك يا واطسون، لنأخذه ونعبر النهر.

ثم تحركنا ناحية ذلك الزورق ونحن نشير لقائده، وما إن صعدنا إلى الزورق، قال هولمز:

- أهم شيء في التعامل مع هذا النوع من الأشخاص هو ألا تدعهم أبدًا يشعرون بأن ما يدلون به من معلومات يمثل أي أهمية بالنسبة إليك، فإن فعلت سيطبقون فمهم على الفور مثل المحار، أما إذا استمعت لهم وأنت غير مبالٍ كما فعلت أنا؛ فستحصل غالبًا على مرادك، سوف يتساقط الكلام منهم كالحساء الفائض من قدر مغلي.

ابتسمت وقلت متسائلًا:

- يبدو أن مسارنا أصبح واضحًا الآن.

- حسنًا، ماذا تقترح أن نفعل إذن؟

- نستأجر زورقًا بخاريًّا، ونبحر في النهر في إثر الزورق (أورورا)،

هز رأسه نافيًا في هدوء، وتابع:

- ستكون تلك مهمة بالغة الصعوبة يا صديقي العزيز، فمن الممكن أن يكون قد رسا في أيٍّ من الأرصفة العديدة المنتشرة على ضفتَي التيمز من هنا إلى جرينتش، فبطول النهر توجد متاهة من المراسي تمتد لأميال، وقد يستغرق البحث فيها جميعًا أيامًا عديدة إن فعلت ذلك بمفردك.

- فلنستعن بالشرطة إذن.

- لا لا، غالبًا سأستدعي أثيلني جونز في اللحظة الأخيرة عند كشف كل الحقائق فقط، فهو ليس شخصًا سيئًا ولا أرغب في فعل ما قد يضره مهنيًّا، لكني أريد أن أحل تلك القضية بنفسي؛ بما أننا وصلنا إلى هذا الحد بالفعل.

هرشت رأسي مفكرًا، ثم تساءلت:

- هل يمكن أن ننشر إعلانًا نطلب فيه معلومات من أصحاب المرافئ؟

نظر لي هولمز مستنكرًا، ثم تابع:

- ستكون عواقب ذلك أسوأ بكثير، فسيعرف الرجلان أنهما أصبحا مُطارَدين وربما يغادران البلاد، الأرجح أنهما ينويان مغادرتها على أي حال، لكن ما دام يظنان أنهما بمأمن فلن يكونا في عجلة من أمرهما، كما أن استنتاجات جونز ستكون في صالحنا في تلك النقطة، فوجهة نظره القاصرة الضيقة بخصوص القضية ستصل إلى الصحف اليومية، وسيظن الهاربان أن الجميع يتبع الأثر الخاطئ.

سألته ونحن نرسو بالقرب من إصلاحية ميلبانك:

- ماذا سنفعل إذن؟

- سنستقل تلك العربة ونذهب إلى المنزل ونتناول الإفطار، ثم نحظى بقسط من النوم، فعلى الأرجح سوف نتحرك من جديد هذا المساء وسنحتفظ بتوبي؛ فقد نحتاج إليه مرة أخرى.

ترجلنا من القارب ومشينا الهوينى، حتى توقفنا عند مكتب بريد شارع جريت بيتر، وأرسل هولمز برقية، ثم سألني ونحن نتابع مشينا نحو موقف العربات:

- إلى مَن تظن أني أرسلت تلك البرقية؟

- لم أعتد أن أسألك هذه الأسئلة.

ابتسم لطريقتي في نطق الكلمات، والتي تنافي لهفتي الواضحة، وتابع:

- أتذكر قسم التحقيقات الخاص بشرطة شارع بيكر الذي استعنت به في قضية جيفرسون هوب؟

تذكرت الصبية والفتيان متسخي الثياب ممزقي الأحذية، وقلت ضاحكًا:

- بالطبع أذكرهم.

- قد تكون مساعدتهم لا تُقدَّر بثمن في هذا النوع من القضايا، وإن فشلوا فلديَّ موارد أخرى، ولكني سأجرب حظي معهم. أولًا كانت تلك البرقية للملازم الصغير الشقي ويجنز، وأتوقع أن يأتي إلينا هو وعصابته حتى قبل أن ننهي إفطارنا.

كانت الساعة بين الثامنة والتاسعة عندما وصلنا إلى شارع بيكر، ودلفت إلى المنزل وأنا أشعر بالوهن والإرهاق، فكان عقلي مشوشًا وجسدي متعبًا، ولم أكن أتمتع بالحماسة المهنية التي كانت تحرك رفيقي، ولا كنت أنظر للأمر باعتباره مجرد مشكلة منطقية مجردة، فبالنسبة إليَّ كان مقتل بارثلوميو شولتو حادثة قتل بين متصارعين على كنز، أما بالنسبة إلى الكنز نفسه فالأمر مختلف؛ فهذا الكنز أو جزء منه يحق للآنسة مورستن، وما دام يوجد أمل في استرجاعه فأنا مستعد لأن أكرس حياتي لتلك الغاية.

صحيح أني إن وجدته فلن أقترب منها ثانية ولن تكون لي أبدًا، ولكن سيكون حبي أنانيًّا وحقيرًا إن تركت تلك الفكرة تؤثر عليَّ. فإذا كان هولمز يعمل جاهدًا على إيجاد المجرمين فلديَّ دافع أقوى بأضعاف لإيجاد الكنز.

ساعدني الاستحمام وتبديل ملابسي كثيرًا على استعادة نشاطي، وعندما نزلت إلى غرفتنا وجدت الإفطار مُعَدًّا، وهولمز يصب القهوة الساخنة.

قال ضاحكًا وهو يشير إلى جريدة مفتوحة:

- هاقد رتب جونز المتحمس والمراسل الصحفي النشيط الأمر فيما بينهما، ولكن كفى كلامًا عن القضية، الأفضل لك أن تتناول البيض واللحم المقدد أولًا.

أخذت منه الصحيفة، وقرأت الخبر العاجل تحت عنوان:

لغز غامض في أبر نوروود

تقول صحيفة ذا ستاندرد

في حوالي الساعة الثانية عشرة مساء أمس، عُثِر على السيد بارثلوميو شولتو الذي يقطن في بونديتشري لودج بأبر نوروود ميتًا في غرفته، في ظل ملابسات تشير إلى وقوع جريمة قتل، وبحسب ما وردنا لم توجد أي آثار عنف فعلية على جثة السيد شولتو، ولكن اختفت مجموعة من المجوهرات الهندية التي ورثها المُتوفَّى عن أبيه.

كان السيد شيرلوك هولمز والدكتور واطسون هما أول مَن اكتشف الجثة، وقد كانا يزوران المنزل بصحبة السيد ثاديوس شولتو شقيق المُتوفَّى، ولحسن الحظ تصادف وجود السيد أثيلني جونز عضو جهاز شرطة التحقيقات المعروف في قسم شرطة نورووود، ووصل إلى مكان الحادث في غضون نصف ساعة من البلاغ الأول، وفور وصوله وجه ملَكاته المتمرسة والمحنكة صوب اكتشاف الجناة، وقد أتى ذلك بنتائج مثمرة؛ فقد اعتقل الأخ ثاديوس شولتو، ومعه مدبرة المنزل السيدة بيرنستون، وكذلك خادم هندي يُدعَى لال راو، والبواب أو حارس البوابة ويُدعَى مكموردو. من المؤكد أن السارق أو السارقين كانوا يعرفون المنزل جيدًا، فخبرة السيد جونز المهنية التي يشتهر بها وقوة ملاحظته مكَّناه من الإثبات على نحو لا يدع مجالًا للشك أن الجناة لا يمكن أن يكونوا قد دخلوا من الباب أو من النافذة، وأنهم لا بد أن يكونوا قد صعدوا إلى سطح المبنى، ومنه دخلوا عبر باب أفقي إلى غرفة متصلة بتلك التي وُجِدت بها الجثة، وهذه الحقيقة المؤكدة تثبت بشكل قاطع أن الأمر لم يكن مجرد حادث سرقة عرَضي، وأثبت رد الفعل اليقظ والنشيط لرجال القانون الفائدة العظيمة من وجود عقل نشط وبارع في مثل تلك الحالات.

ونعتقد أن ذلك حجة على مَن يدعون إلى تقليل أهمية محققينا؛ لكي يتمكنوا من العمل بفعالية وعن قرب أكثر على القضايا التي من واجب المحققين العمل عليها، وليس الهواة المستأجرون.

قال هولمز وهو يبتسم ابتسامة عريضة ساخرة من خلف فنجان قهوته:

- أليس مقالًا رائعًا؟

- لقد اعتقل الجميع، وأنا أعتقد أننا نجونا بأعجوبة من الاعتقال بتهمة ارتكاب هذه الجريمة!

ضحك في سخرية، ثم تابع:

- وأنا أيضًا أعتقد هذا، فأنا لا أضمن أننا سنكون بمأمن إن انتابته نوبة أخرى من نوبات الذكاء التحقيقي تلك، فلربما قبض علينا وعلى توبي المسكين.

في تلك اللحظة قطع ضحكاتنا صوت جرس الباب، وسمعت السيدة هادسون صاحبة المنزل ترفع صوتها بعويل احتجاج وفزع على صوت الجرس في هذا الوقت المبكر.

قلت وأنا أنتفض واقفًا:

- بحق السماء يا هولمز، أعتقد أنهم يطاردوننا حقًّا!

- لا لا، الأمر ليس بهذا السوء، إن هذا هو جهاز الشرطة غير الرسمي، القوات غير النظامية.

بينما كان يتحدث تعالى وقع أقدام حافية رشيقة على السلالم وجلجلة أصوات عالية، ثم دخل علينا دستة من الأطفال المشردين المتسخين رثِّي الثياب، وعلى الرغم من دخولهم الصاخب؛ فقد أظهروا قدرًا من الانضباط بينهم عندما قابلهم وجه هولمز الصارم، فقد اصطفوا على الفور في صف واحد أمامنا، ووقفوا يتطلعون إلينا بوجوه مترقبة.

تقدم أحدهم وكان الأطول والأكبر عمرًا بينهم بتلكؤ فيه قدر من التعالي المضحك، ثم قال:

- لقد تلقيت رسالتك يا سيدي وأحضرتهم معي في الموعد، ثلاثة شلنات ونصف الشلن مقابل التذاكر.

قال هولمز وهو يناوله بعض العملات الفضية:

- تفضل أيها السيد المحترم، فيما بعد يمكنهم أن يبلغوك بالتطورات وأنت بدورك تبلغني إياها يا ويجنز، فلن أسمح بأن يقتحموا المنزل بهذه الطريقة مجددًا، ومع ذلك من الأفضل أنكم أتيتم جميعًا حتى تسمعوا التعليمات.

ثم نهض ناصبًا قامته، حتى بدا كأنه قائد عسكري يوجه جنوده:

- أريد معرفة مكان زورق بخاري يُدعَى (أورورا)، صاحبه يُدعَى موردخاي سميث، والزورق لونه أسود بخطين أحمرين، ومدخنته سوداء وبها شريط أبيض. إن هذا الزورق في مكان ما بالنهر حاليًّا، كما أريد أن يبقى أحد الأولاد عند مرسى موردخاي قبالة ميلبانك؛ لإبلاغي حال عودة الزورق، ولتُقسِّموا عملية البحث بينكم، وفتِّشوا الضفتين بدقة، وأبلغوني على الفور بأي تطورات، هل كلامي واضح؟

- نعم أيها الزعيم.

قالها وينجز في صرامة. فتابع هولمز:

- سأعطيكم الأجر المعتاد، وجنيه كامل مكافأة لمَن سيجد الزورق، وهذا أجر يوم مقدمًا، والآن هيا، انطلقوا.

ثم أعطى كلًّا منهم شلنًا، وانطلقوا ينزلون السلالم بسرعة، ثم رأيتهم بعد لحظات يتدفقون في الشارع.

قال هولمز وهو يجلس ويشعل غليونه:

- إذا كان ذلك الزورق على سطح الماء فسيجدونه حتمًا، فهم لديهم القدرة على الذهاب لأي مكان ورؤية كل شيء وسماع ما يدور بين الناس، وأتوقع أن يخبروني أنهم عرفوا مكان الزورق قبل أن يحل المساء، وفي تلك الأثناء لا يسعنا إلا أن ننتظر النتائج، فلا يمكننا التقاط طرف الخيط المقطوع حتى نجد الزورق (أورورا) أو السيد موردخاي سميث.

- أعتقد أنه يمكن لتوبي أن يأكل بقايا الطعام تلك، قل لي، هل ستخلد للنوم يا هولمز؟

هز رأسه نافيًا، وتابع:

- لا، لست متعبًا، فبنيتي الجسدية غريبة نوعًا، فأنا لا أذكر أني شعرت أبدًا بالتعب من العمل مع أن الخمول يرهقني تمامًا؛ لذا سوف أدخن وأفكر في تلك القضية الغريبة التي أتت إلينا بها عميلتنا الحسناء، فمن المفترض أن تكون مهمتنا هذه أسهل ما يكون، فذوو الأرجل الخشبية ليسوا كثيرين في لندن، لكني أعتقد أن الرجل الآخر فريد من نوعه تمامًا.

- هأنت تتحدث عن رجل آخر من جديد.

نفث دخان غليونه متابعًا:

- لا أريد أن أجعل منه لغزًا على الأقل بالنسبة إليك، لكنك حتمًا كوَّنت رأيًا عنه. انظر إلى البيانات المتاحة، آثار أقدام صغيرة وأصابع أقدام لم توضع قط داخل حذاء، والهراوة ذات الرأس الحجري، وخفة في الحركة وأسهم صغيرة مسممة، ماذا تستنتج من كل هذا؟

- رجل بدائي ربما كان أحد شركاء جوناثان سمول من الهنود.

هز رأسه نافيًا، وتابع:

- ليس صحيحًا يا عزيزي، فعندما رأيت آثارًا لأسلحة غريبة ملت إلى اعتقاد ذلك، لكن طبيعة آثار الأقدام الغريبة دفعتني إلى تغيير رأيي، فبعض سكان شبه القارة الهندية هم رجال ضئيلو الحجم لكن ليس لدرجة أن يتركوا آثار أقدام كتلك، فالهنود الأصليون أقدامهم طويلة ونحيفة، والمسلمون منهم دائمًا ما ينتعلون الخف، فيكون إصبع قدمهم الكبير بعيدًا عن الأصابع الأخرى، وهناك طريقة واحدة فقط لإطلاق هذه الأسهم الصغيرة، فلقد أُطلِقت من قصبة نفخ. إذن، أين نجد رجلنا البدائي هذا؟

قلت مخمنًا:

- أمريكا الجنوبية؟

مد يده لأعلى والتقط مجلدًا سميكًا من الرف متابعًا:

- هذا هو المجلد الأول من معجم جغرافي يُنشَر حاليًّا، ويمكن اعتباره أحدث مرجع متاح، ماذا لدينا هنا؟ حسنًا، جزر (أندمان) تقع على بعد ٣٤٠ ميلًا شمال سومطرة في خليج البنغال، ومناخها رطب وتحيطها شعاب مرجانية وأسماك قرش ومدينة بورت بلير وثكنات للمساجين وجزيرة روتلاند وأشجار الحور، حسنًا، هاقد وصلنا، يقول المعجم: يمكن اعتبار السكان الأصليين لجزر أندمان العرق الأصغر جسديًّا على الأرض، مع أن بعض علماء الأنثروبولوجيا يقولون إن قبائل البوشمن الأفريقية وقبائل هنود ديجر الأمريكية وسكان تيرا ديل فويجو أكثر ضآلة. إن متوسط طول الفرد أقل من أربعة أقدام، مع أنه قد يوجد أفراد بالغون طولهم أقل من ذلك بكثير، وهم شعب شرس وغير ودود وصعب المراس، ومع ذلك لديه القدرة على تكوين علاقات صداقة مخلصة عند كسب ثقته. تذكر ذلك يا واطسون؟ والآن استمِعْ لهذا، هم شعب قبيح المظهر بطبيعتهم، رءوسهم كبيرة وغير منتظمة الشكل وأعينهم صغيرة وشرسة وملامحهم مشوهة، وأيديهم وأقدامهم صغيرة بشكل ملحوظ، وهم قوم شرسون ومتوحشون لدرجة أن جميع جهود المسئولين البريطانيين لكسبهم في صفهم فشلت تمامًا، فطالما كانوا مصدر رعب لأطقم السفن؛ حيث يضربون رءوس الناجين منهم بهراواتهم ذات الرءوس الحجرية أو يطلقون عليهم أسهمهم المُسمَّمة الصغيرة، وتنتهي هذه المذابح البشرية دائمًا باحتفال لأكل لحوم الضحايا! هل رأيت؟ يا لهم من أشخاص لطفاء وودودين يا واطسون! إذن لو تُرِك ذلك الرجل ليتصرف على هواه دون تدخُّل، لاتخذت تلك القضية منحًى أفظع من ذلك بكثير. أعتقد أنه على الرغم من كل شيء، كان جوناثان سمول على استعداد لأن يضحي بالكثير مقابل ألا يستعين به.

نظرت له مندهشًا، ثم تساءلت:

- لكن كيف انتهى به الأمر بصحبة رفيق فريد جدًّا كهذا؟

- لا يمكنني الإجابة عن هذا السؤال، فلقد أقررنا بالفعل أن سمول قد أتى من جزر أندمان؛ لذا ليس من الغريب أن يصحب معه أحد سكان الجزيرة، وبلا شك سنعرف جميع التفاصيل في الوقت المناسب. اسمعني يا واطسون، أنت تبدو مرهقًا جدًّا، تمددْ هنا على الأريكة؛ لنرى إن كنت أستطيع مساعدتك على النوم.

ثم التقط كمانه من ركن الغرفة، وحين استلقيت وأغمضت عيني، بدأ يعزف لحنًا هادئًا حالمًا عذبًا لا شك أنه من تأليفه هو شخصيًّا، فلديه موهبة فذة في الارتجال.

رحت أتخيل أطرافه النحيلة ووجهه الصارم، وقوس كمانه وهو يعلو ويهبط، ثم شعرت وكأنني أطفو بعيدًا بسلام على صفحة بحر هادئ من الأنغام.

وما هي إلا دقائق، حتى وصلت إلى أرض الأحلام.

ورأيت وجه ماري مورستن الملائكي ينظر إليَّ في حب.

الفصل التاسع
كسر في السلسلة

استيقظت في وقت متأخر بعد الظهر وقد استعدت قوتي ونشاطي، وكان شيرلوك هولمز جالسًا بالضبط كما تركته، إلا أنه نحى الكمان جانبًا وكان متعمقًا في قراءة كتاب ما.

نظر إليَّ وأنا أتحرك، ولاحظت أن وجهه كان حزينًا ومضطربًا.

قال:

- لقد غططت في نوم عميق، وخشيت أن يوقظك حديثنا.

- حديثنا؟! لم أسمع شيئًا، هل وردتك أخبار جديدة؟

- للأسف ليس بعد، وأُقِر بأن ذلك يدهشني ويخيب أملي، فقد توقعت أن يأتيني خبر مؤكد بحلول هذا الوقت، لكن ويجنز أتى منذ قليل ليخبرني بالتطورات، ويقول إنهم لم يجدوا أي أثر للزورق! وهو خبر مثير للحنق، فكل ساعة تمر لها أهمية قصوى.

نهضت جالسًا فوق الأريكة، وقلت:

- هل يوجد ما يمكنني فعله؟ لقد استعدت نشاطي الآن، وأصبحت مستعدًّا للانطلاق.

- لا يوجد ما يمكننا فعله الآن سوى الانتظار، فإن خرجنا فقد يأتي الخبر في غيابنا، وسيؤدي ذلك لحدوث تأخير، بإمكانك أن تفعل ما شئت، لكني يجب أن أنتظر هنا متأهبًا.

- إذن سأذهب إلى كامبرويل وأمر على السيدة سيسل فورستر، فقد طلبت مني ذلك أمس.

سألني هولمز وقد لمعت في عينيه ابتسامة ماكرة:

- تمر على السيدة سيسل فورستر؟

بدا عليَّ الارتباك أمام نظرته الخبيثة، فتابعت:

- وعلى الآنسة مورستن أيضًا بالطبع، فقد كانتا متشوقتين لسماع ما حدث.

- أنصحك بألا تسترسل في التفاصيل، فالنساء لسن جديرات بالثقة المطلقة.

لم أتوقف لأجادله في رأيه المريع في الجنس الأنثوي، بل قلت معلقًا:

- سوف أعود في غضون ساعة أو اثنتين.

- حظ سعيد، لكن إن كنت ستعبر إلى الجهة المقابلة من النهر فهلَّا أعدت توبي إلى صاحبه، لا أعتقد أننا سنحتاج إليه قريبًا.

وعليه، فقد أخذت الكلب الهجين وسلمته لصاحبه عالم الطبيعة بمنزله في بينشن لين، وأعطيته كذلك نصف جنيه ذهبي.

وفي كمبرويل وجدت الآنسة مورستن لا تزال مرهقة قليلًا جراء مغامراتنا مساء أمس، ولكنها كانت متشوقة جدًّا لسماع الأخبار، والفضول يتملك السيدة فورستر كذلك، فأخبرتهما بجميع

ما فعلناه، ولكني حذفت التفاصيل الكريهة من تلك المأساة، فعلى الرغم من أني حكيت لهما عن موت السيد شولتو، لم أذكر بالتحديد الطريقة التي مات بها، ومع أني حذفت الكثير من تفاصيل القصة، ظل هناك ما يكفي لإثارة دهشتهن وذهولهن.

صاحت السيدة فورستر:

- إنها قصة ملحمية مثالية، هناك سيدة في مأزق وكنز قيمته نصف مليون وآكِل لحوم بشر أسود اللون، وشرير بساق خشبية، إنهما بمثابة التنين أو الإيرل الشرير.

أضافت الآنسة مورستن قائلة، وهي ترمقني بنظرة فرحة:

- ولا تنسي، وفارسان مغواران يتدخلان لإنقاذ الأميرة.

- صحيح يا ماري، إن حظك يعتمد على عملية البحث تلك، لكني لا أرى أنكِ متحمسة بالدرجة الكافية! تخيلي كيف سيكون حالك وأنت بهذا الثراء الفاحش والعالم كله تحت قدميك.

قلت ذلك وقد انشرح صدري قليلًا عندما لاحظت أنه لم يبدُ عليها علامات الابتهاج أمام هذا الاحتمال، بل على العكس ألقت برأسها الأبي للخلف، وكأن الأمر لا يعنيها كثيرًا، ثم قالت:

- ما يثير قلقي هو السيد ثاديوس شولتو، فلا يعنيني أي شيء آخر، فأنا أرى أنه تصرف بلطف ونبل بالغ منذ البداية؛ لذا من واجبنا أن نبرئ ساحته من تلك التهمة الشنيعة التي لا أساس لها من الصحة.

كان المساء قد حل عندما غادرت كامبرويل، والظلام قد بسط سيطرته عندما وصلت إلى البيت، وقد وجدت كتاب رفيقي وغليونه بجوار كرسيه، ولكني لم أجده هو نفسه!

بحثت حولي على أمل أن يكون قد ترك ملاحظة، لكني لم أجد شيئًا.

سألت السيدة هادسون عندما صعدت لتزيل آثار الأطباق:

- أرى أن السيد شيرلوك هولمز قد خرج؟

- كلا يا عزيزي، لقد دخل غرفته، وأغلق عليه الباب.

ثم قالت، وقد خفضت صوتها إلى همس خافت جدًّا:

- أنا قلقة على صحته كثيرًا.

- وما سبب ذلك يا سيدة هادسون؟

- إنه يتصرف بغرابة يا سيدي! فبعد أن غادرت أنت، ظل يمشي ويمشي جيئةً وذهابًا في حجرة الجلوس، حتى أتعبني صوت وقع أقدامه، ثم سمعته يُحدِّث نفسه ويتمتم، وفي كل مرة يرن فيها جرس الباب كان يخرج إلى أعلى السلم، ويسأل: «مَن هناك يا سيدة هادسون؟». وبعد ذلك اندفع إلى غرفته وأغلقها عليه، ولكني لا أزال أسمعه يجوبها مثل ذي قبل، وآمل ألا تكون هذه مقدمات مرض يا سيدي، فقد تجرأت وقلت له شيئًا عن علاج للحمى، لكنه التفت إليَّ بنظرة أربكتني وكادت تسقطني رعبًا، حتى إني لا أعرف كيف غادرت الغرفة.

أجبتها مطمئنًا:

- لا أظن أنه يوجد ما يستدعي قلقك يا سيدة هادسون، لقد رأيته على ذلك الحال من قبل،

فيوجد أمر بسيط يشغل باله، وهو ما يجعله مضطربًا.

حاولت أن أتحدث إلى صاحبة المنزل الفاضلة ومدبرة شئوننا الوفية، دون أن يبدو عليَّ القلق، لكني أنا أيضًا انتابني القلق قليلًا عندما كنت أسمع وقع خطواته الرتيب من آنٍ لآخر طوال تلك الليلة الطويلة، وأعرف أن روحه المتحمسة تثور ضد ذلك الخمول الاضطراري.

مرت الليلة على نفس المنوال، وفي أثناء تناولنا الإفطار بدا مرهقًا ومنهكًا والدم يوشك على القفز من وجنتيه.

- أنت تنهك نفسك يا صديقي، فقد سمعتك تمشي جيئةً وذهابًا طوال الليل.

- لم أستطع النوم، فهذه المشكلة البغيضة تستنفد طاقتي ولا أحتمل أن تعترضني عقبة تافهة كتلك بعد أن تخطيت جميع العقبات الأخرى. أنا أعرف الرجلين والزورق وكل شيء، ومع ذلك فشلت في الحصول على أي أخبار! وقد استعنت بهيئات أخرى لتشارك في البحث، واستخدمت جميع الوسائل المتاحة أمامي، ورفاق وينجز فتشوا النهر بأكمله بكلتا ضفتيه ولكن لم ترِد أي أخبار عنهما، ولم تصل السيدة سميث أيضًا أي أخبار عن زوجها، وقريبًا لن يكون أمامي إلا أن أستنتج أنهم أغرقوا الزورق، لكن هناك ما ينفي هذا.

قلت وأنا أتظاهر بتصفح الجريدة:

- أو ربما تكون السيدة سميث وضعتنا على الطريق الخاطئ.

- مستحيل، إن هذا احتمال غير وارد، فلقد أجريت تحريات وعرفت أن هناك زورقًا بتلك المواصفات بالفعل.

- هل من الممكن أن يكون قد ذهب في الاتجاه الآخر من النهر؟

- لقد فكرت في ذلك الاحتمال أيضًا، وتوجد فرقة بحث تسير في ذلك الاتجاه حتى ريتشموند، وإن لم ترد أي أخبار اليوم فسأنطلق بنفسي غدًا. سأبحث عن الرجلين لا القارب، ولكن حتمًا سيأتي خبر ما اليوم.

إلا أن هذا لم يحدث مع الأسف، فلم تردنا أي أخبار من ويجنز ولا من الجهات الأخرى، وظهرت مقالات في معظم الصحف عن مأساة نوروود، واتخذت جميعها نبرة معادية لثاديوس شولتو تعيس الحظ، ولم يتضمن أي منها تفاصيل جديدة، اللهم إلا أن ثمة تحقيقًا سيُجرَى في اليوم التالي.

مشيت إلى كامبرويل مساءً لأبلغ السيدتين بعدم إحرازنا لأي تقدُّم، وعند عودتي وجدت هولمز مغمومًا وواجمًا بعض الشيء. كان بالكاد يرد على أسئلتي وانشغل طوال المساء بتحليل كيميائي معقد، تضمن تسخينًا لأوعية تقطير وتقطير أبخرة، وانتهى أخيرًا برائحة شنيعة دفعتني لمغادرة الشقة والتسكع في الشارع حتى ساعات الصباح الأولى، وقد كنت أسمع طنين أنابيب اختباره؛ مما أعلمني أنه لا يزال منشغلًا بتلك التجربة الكريهة الرائحة.

وفي الصباح الباكر، استيقظت مفزوعًا بعد كابوس سيئ، واندهشت لرؤيته يقف بجوار سريري في زي بحار بسيط، ويرتدي سترة بحار صوفية، ويلف وشاحًا أحمر خشنًا حول عنقه!

قال في حماس:

- أنا ذاهب إلى النهر يا واطسون، فلقد قلبت الأمر في رأسي، ولا أرى إلا حلًّا واحدًا، فالأمر

يستحق المحاولة على أي حال.

- هل يمكنني أن آتي معك إذن؟

- كلا، فوجودك هنا بالنيابة عني سيكون أكثر فائدة، فأنا أكره أن أكون غائبًا عن المنزل؛ لأنه من المرجح أن تصلني رسالة خلال اليوم، مع أن ويجنز كان يائسًا من الأمر ليلة أمس؛ لذا أريدك أن تبقى هنا، وأن تفتح جميع الملاحظات والبرقيات التي تردني، وتتصرف حسب ما تراه صحيحًا حال وردت أي أخبار، هل يمكنني الاعتماد عليك؟

- بكل تأكيد.

أحكم وثاق الوشاح حول عنقه متابعًا:

- للأسف لن يكون بإمكانك أن ترسل لي برقية؛ لأني لا أعرف إلى أين ستأخذني رحلتي، لكن إن حالفني الحظ فلن أغيب لفترة طويلة، وسأكون عندها قد توصلت لمعلومات من أي نوع.

ثم رفع يده محييًا، وانطلق في طريقه.

حتى موعد الإفطار لم تكن قد وصلتني منه أي أخبار، وعندما فتحت صحيفة ذا ستاندرد وجدت تنويهًا جديدًا عن الموضوع كان يقول:

فيما يتعلق بالمأساة التي وقعت في أبر نوروود لدينا ما يدعو للاعتقاد بأن الأمور ستأخذ مجرى أعقد وأكثر غموضًا مما ظنناه في البداية، فتشير أدلة جديدة إلى استحالة أن يكون للسيد ثاديوس شولتو يد في الأمر، فقد أُطلِق سراحه مساء أمس هو ومدبرة المنزل السيدة بيرنرستون، لكن يُعتقَد أن الشرطة لديها دليل على هوية المجرمين الفعليين، وأن السيد أثليني جونز من شرطة سكوتلانديارد يتتبعه بنشاطه وحنكته المعروفين، ومن المتوقع أن تحدث عمليات اعتقال جديدة في أي لحظة.

قلت لنفسي إن هذا خبر مُرضٍ إلى حد ما. فعلى الأقل أصبح صديقنا شولتو بأمان، لكن يا تُرَى ما هذا الدليل الجديد؟ وهل هناك دليل جديد بالفعل، أو أنه نفس الكلام الذي يتكرر كلما ارتكبت الشرطة غلطة جديدة؟

ألقيت بالصحيفة على الطاولة، لكن في تلك اللحظة وقعت عيناي على إعلان في عمود الإعلانات الشخصية كان نصه كما يلي:

مفقود

غادر المراكبي موردخاي سميث وابنه جيم رصيف مرفأ سميث في حوالي الساعة الثالثة صباح يوم الثلاثاء الماضي في الزورق البخاري الذي يُدَعَى (أوروا)

الزورق لونه أسود وبه خطان باللون الأحمر ومدخنته سوداء وبها شريط أبيض، وستُدفَع مكافأة قيمتها خمسة جنيهات لمَن يدلي بمعلومات عن مكان موردخاي سميث والزورق (أوروا) للسيدة سميث عند رصيف مرفأ سميث، أو في العنوان ٢٢١ بي. شارع بيكر

كان من الواضح أن هذا من فعل هولمز بالطبع، فوجود عنوان شارع بيكر كان كافيًا لإثبات ذلك.

بدت لي فكرة عبقرية؛ لأن المجرمين الهاربين إذا قرأوه، فلن يروا فيه أكثر من قلق زوجة طبيعي

على زوجها المفقود.

مر النهار ببطء شديد، وفي كل مرة أسمع طرقًا على الباب أو وقع خطوات ثقيلة في الشارع كان يُخيَّل لي إما أن هولمز قد عاد، أو أن أحدًا جاء ليرد على الإعلان الذي نشره.

حاولت أن أقرأ لكن عقلي كان يشرد إلى مهمتنا الغريبة، وإلى المجرمَيْن غير المتوافقَيْن اللذين نبحث عنهما.

تساءلت عن احتمال وجود خلل جسيم في استدلالات هولمز المنطقية، فهل من المحتمل أن يكون ضحية لخداع النفس؟

أليس من الممكن أن يكون عقله الاستثنائي المبتكر قد بنى تلك النظرية الجامحة على فرضيات غير سليمة؟

لم أعهده مخطئًا من قبل، ولكن حتى أكثر المفكرين حذاقة قد ينخدع أحيانًا، وفي اعتقادي أنه يُحتمَل أن يكون قد وقع في خطأ؛ بسبب تحريه الدقة الزائدة في تحليله المنطقي، ورغبته في صياغة تفسير معقد وغريب حتى عند وجود تفسير عادي وبسيط نصب عينيه، ولكني على صعيد آخر رأيت بنفسي الأدلة وسمعت الحجج المنطقية التي بنى عليها استنتاجاته، وحين أسترجع السلسلة الطويلة من هذه الملابسات الغريبة .التي يبدو الكثير منها تافهًا في ذاته، لكنها جميعًا تسير في نفس الاتجاه. لا يسعني أن أنكر أنه حتى إن كان تفسير هولمز غير صحيح فالتفسير الحقيقي لا بد أنه على نفس الدرجة من الغرابة والإثارة للدهشة.

في الساعة الثالثة مساءً دوى الجرس يعوي بلا انقطاع، وسمعت صوتًا آمرًا متسلطًا يدوي صداه في الردهة، ولدهشتي وجدت السيد أثيلني جونز ذاته يصعد إليَّ، ولكنه بدا مختلفًا تمامًا عن أستاذ المنطق البارع الذي تولى القضية بكل ثقة في أبر نوروود، فقد كان يبدو مغمومًا، محني الكتف، يرفع صوته الآمر فقط كي يخفي حالة الخنوع التي يظهر عليها.

خلع قبعته، وقال:

- طاب يومك يا دكتور، السيد شيرلوك هولمز ليس هنا، أليس كذلك؟

- نعم، ولا أعرف متى سيعود، ولكن بإمكانك انتظاره إن أردت.

ثم أشرت إلى الأريكة متابعًا:

- تفضل بالجلوس في هذا الكرسي، وجرِّبْ سيجارًا من تلك، إنها من نوعية جيدة.

قال وهو يمسح وجهه بمنديل أحمر كبير:

- شكرًا لك، بالفعل أنا أحتاج إلى سيجار.

- هل ترغب في بعض الويسكي الممزوج بالصودا؟

- حسنًا، بالتأكيد، لا مانع في نصف كوب، فالجو حار جدًّا بالنسبة إلى ذلك الوقت من السنة، ولديَّ أمور كثيرة تشغل بالي وترهقني، بالتأكيد أنت تعلم نظريتي بشأن قضية نوروود، أليس كذلك؟

تظاهرت باللامبالاة قائلًا:

- أذكر أنك أتيت بنظرية ما.

- حسنًا، يمكنني القول غنني أُجبِرت على إعادة النظر فيها، فما كدت أن أضيق شباكي حول السيد شولتو حتى نفذ من خلال فتحة بها، فقد استطاع أن يأتي بحجة غياب لا غبار عليها. فمنذ أن غادر غرفة أخيه لم يغب عن نظر شخص أو اثنين من معارفه؛ لذا لا يمكن أن يكون هو مَن تسلق إلى السطح ودخل عبر الباب الأفقي، اسمح لي أن أقولها بصراحة أيها الطبيب المحترم، إن هذه القضية غامضة جدًّا، وهي تضع سمعتي المهنية على المحك، ولهذا سيسعدني جدًّا الحصول على بعض المساعدة.

ابتسمت رغمًا عني، وأنا أراقب قطرات العرق تحتشد على جبهته الضيقة.

- جميعنا نحتاج إلى المساعدة في بعض الأحيان يا سيد جونز.

فأجاب بصوت أجش مكتوم:

- صديقك السيد شيرلوك هولمز رجل مدهش يا سيدي؛ فهو رجل لا يُهزَم أبدًا. لقد رأيت ذلك الشاب يتولى قضايا كثيرة، لكني لم أره أبدًا يفشل في التوصل لحل أي منها، فلديه أساليب غير عادية، وربما يكون متسرعًا إلى حد ما في تكوين نظرياته، لكن في المجمل أعتقد أنه كان يمكن أن يصبح ضابطًا واعدًا، ولا أمانع في إبداء رأيي ذلك أمام أي جهة كانت، تخيَّلْ أني تلقيت برقية منه هذا الصباح فهمت منها أنه حصل على دليل ما في قضية شولتو تلك، هاهي البرقية.

ثم أخرج البرقية من جيبه، وناولني إياها.

كانت مرسلة من منطقة بوبلار في الساعة الثانية عشرة ظهرًا، وكانت تقول:

اذهب إلى شارع بيكر على الفور

إذا لم أكن قد عدت بعد فانتظرني

لقد أوشكت أن أصل إلى عصابة قضية شولتو

يمكنك أن تأتي معنا الليلة إذا كنت تريد أن تكون موجودًا عند خط النهاية

انتهى

قلت في هدوء حذر:

- هذا يبدو جيدًا. يبدو أنه التقط طرف الخيط مرة أخرى.

- إذن فقد كان مخطئًا هو الآخر. فحتى الأفضل من بيننا يضلون أحيانًا.

ثم نفث دخان السيجار في رضا، وتابع:

- بالطبع قد يكون هذا إنذارًا خاطئًا، لكن من واجبي باعتباري رجل قانون ألا أفوت أي فرصة من تحت يدي، اسمع، ثمة أحد بالباب قد يكون هو.

سمعنا وقع خطوات ثقيلة تصعد السلم، وصوت أزيز وحشرجة أنفاس صاحبها وكأنما يواجه صعوبة شديدة في التقاط أنفاسه، حتى إنه توقف لمرة أو مرتين وكأنما طريق الصعود شاق جدًّا عليه، ولكنه أخيرًا وصل إلى الباب ودخل إلى الحجرة.

كان مظهره يتماشى مع الأصوات التي سمعناها، فقد كان رجلًا مسنًّا يرتدي معطف بحار وسترة بحار قديمة أزرارها مغلقة حتى الياقة، وظهره محني وركبتاه ترتعدان ويلتقط أنفاسه بصعوبة

بالغة مستندًا إلى عصا غليظة من خشب البلوط، ويلف وشاحًا ملونًا حول رقبته، وكنت لا أرى من وجهه إلا عينين سوداوين ثاقبتين يعلوهما حاجبان أبيضان كثيفان، وسالفين رماديين طويلين.

وفي المجمل أعطاني الانطباع بأنه بحار بارع جدير بالاحترام وقع فريسة للخرف والفقر.

ثم رفع كتفيه بجهد محاولًا سحب الهواء إلى رئتيه كأنه مشى مائة ميل!

سألته صائحًا:

- ما الأمر يا سيدي؟

تلفت حوله بأسلوب المسنين البطيء، ثم خرج صوته غليظًا مرهقًا:

- هل السيد شيرلوك هولمز موجود؟

- كلا، ولكني أنوب عنه. يمكنك أن تخبرني بأي رسالة تود تركها له.

- يجب أن أخبره هو بنفسه.

- لكني أقول لك إني أنوب عنه يا سيدي. هل يتعلق الأمر بزورق موردخاي سميث؟

سعل سعلة كادت تزهق روحه، ثم أفرغ مخاط صدره في منديل كبير، وتابع:

- أجل، فأنا أعرف مكانه بالضبط، وأعرف مكان الرجلين اللذين يبحث عنهما، وأعرف مكان الكنز، أنا أعرف كل شيء عن ذلك الأمر.

- إذن أخبرني وأنا سأخبره.

فكرر بإصرار العجائز ودون أن يتحرك خطوة واحدة:

- يجب أن أخبره هو بنفسه.

- إذن سيتعين عليك انتظاره حتى يعود.

سعل من جديد وهو يلوح بإصبعه المتشقق الغليظ:

- لا، لن أضيع يومًا كاملًا إرضاءً لأحد. فإذا لم يكن السيد هولمز موجودًا فسيتعين عليه اكتشاف الأمر كله بنفسه. أنا لا أعرف أيًّا منكما، ولن أنطق بكلمة إلا للسيد شيرلوك هولمز.

ثم جر قدميه تجاه الباب، لكن أثيلني جونز سبقه إليه، ووقف أمامه في إصرار سادًّا طريق المغادرة، وقال:

- انتظر قليلًا يا رفيق، فلديك معلومات مهمة ويجب ألا تنصرف، وسوف نبقيك هنا شئت أم أبيت حتى عودة صديقنا هولمز.

حاول العجوز أن يراوغ جونز ويخرج من الباب، لكن محاولاته بدت مضحكة ويائسة، وخاصة عندما أسند أثيلني جونز ظهره العريض على الباب؛ فأدرك أنه لا جدوى من المقاومة.

صاح وهو يخبط الأرض بعصاه:

- يا لحسن معاملتكم للعجائز. لقد أتيت إلى هنا لأقابل رجلًا محترمًا وهأنتما يا مَن لم أركما في حياتي من قبل تحتجزانني وتعاملانني بتلك الطريقة!

- لن يصيبك أي سوء يا سيدي، فنحن سوف نعوضك عن ضياع وقتك. والآن اجلس هنا على الأريكة، ولن تنتظر طويلًا، أنا دكتور جون واطسون صديق السيد هولمز ورفيق سكنه.

مشى متجهمًا، ثم جلس دافنًا وجهه في راحتيه في يأس، بينما تابعت أنا وجونز تدخين السيجار والحديث متشاغلين عن ذلك العجوز حتى كدنا ننسى وجوده، لكن فجأة قاطعنا صوت هولمز الواثق الرصين قائلًا:

- أعتقد أنه بإمكانك أن تعرض عليَّ سيجارًا أنا أيضًا!

انتفضنا كأنما لدغتنا سرية من العقارب، فقد كان هولمز يجلس بالقرب منا ويبدو عليه الاستمتاع وعيناه تلمعان بذلك البريق.

- هولمز؟! كيف دخلت إلى هنا؟! ثم أين العجوز؟!

فأجاب وهو يمسك بكومة من الشعر الأبيض المستعار:

- هاهو العجوز يا رفيقي، هاهو الشعر المستعار والسالفان والحاجبان وكل شيء، كنت أعرف أن تنكري جيد للغاية، ولكني لم أتوقع أن يخدعك أنت يا واطسون.

صاح جونز مندهشًا وسط ضحكاته:

- أيها المحتال، بحق السماء كنت ستصبح ممثلًا مرموقًا، فقد قلدت سعال مَن يعيشون في ملاجئ الفقراء بالضبط، وتقليدك لتلك المشية الواهنة يستحق عشرة جنيهات في الأسبوع، ولكني أعتقد أنني تعرفت لمعة عينيك، ولم تفلت منا بتلك السهولة كما ترى.

فابتسم هولمز ساخرًا، وقال وهو يشعل سيجارًا:

- بالطبع يا سيد جونز، فقد كنت أعمل على ذلك المظهر التنكري طوال اليوم، وكما تريان قد أصبحت معروفًا لدى الكثير من الجماعات الإجرامية، خاصةً بعد أن نشر صديقي الدكتور واطسون بعض قضاياي في صحف شهيرة؛ لذا لا يسعني أن أنزل إلى ساحة المعركة إلا بتنكر بسيط كهذا، والآن يا سيد جونز، أفهم أنك تلقيت برقيتي؟

- أجل، ولذلك أتيت إلى هنا.

- ما آخر تطورات قضيتك؟

- لا شيء، فقد اضطررت للإفراج عن سجينين من السجناء، ولا يوجد أي أدلة تدين الاثنين الآخرين.

ابتسم هولمز تلك الابتسامة الغامضة، وهو يتابع في جذل:

- لا تقلق، فسوف نعطيك سجينين آخرين مكانهما؛ لذلك يجب عليك تنفيذ أوامري كاملة، ثم يمكنك فيما بعد أن تنسب الفضل رسميًّا لنفسك، ولكنك ستتصرف وفق ما أقوله لك، اتفقنا؟

- بالطبع، إن كنت ستساعدني في الإمساك بالرجلين.

جلس هولمز ومد ساقيه الطويلتين متابعًا:

- إذن في المقام الأول، أريد زورق شرطة سريعًا عند مرفأ وستمنستر ستيرز في الساعة السابعة.

- يسهل تدبير ذلك، بإمكاني أن أعبر الشارع وأجري مكالمة هاتفية لأرتب ذلك.

- أريد كذلك رجلين قويين تحسبًا لحدوث مقاومة عنيفة.

- سيكون هناك رجلان أو ثلاثة في الزورق.

أومأ هولمز برأسه مستحسنًا تعاوُن جونز الكامل، ثم مال بجذعه في اتجاه جونز متابعًا:

- عند القبض على الرجلين سنأخذ نحن الكنز، وأعتقد أن صديقي واطسون سيسره أن يأخذ صندوق الكنز للشابة صاحبة الحق في نصفه؛ لتكن هي أول مَن يفتحه.

ثم التفت بجانب وجهه إليَّ متابعًا في خبث:

- ما رأيك يا واطسون؟

- سيكون ذلك من دواعي سروري.

نفث جونز من دخان السيجار، ثم قال ببطء:

- هذا إجراء غير عادي، لكن الأمر برمته غير عادي، وأعتقد أنه بإمكاننا غض الطرف عن ذلك، ولكن يجب تسليم الكنز بعد ذلك للسلطات حتى انتهاء التحقيق الرسمي.

- بالطبع، يسهل تدبير ذلك، آه، بالمناسبة توجد نقطة أخيرة...

ثم سرح ببصره إلى النافذة التي يتسرب منها الضوء الواهن، وقال:

- أريد سماع بعض التفاصيل من على لسان جوناثان سمول نفسه، فأنت تعرف أنني أحب أن أكتشف أدق تفاصيل قضاياي، وأنت لن تمانع أن أحظى بمقابلة غير رسمية معه، سواء هنا في شقتي أو في أي مكان آخر ما دام أنه يخضع لحراسة مشددة.

- حسنًا يا هولمز، أنت سيد الموقف؛ فأنا ليس لديَّ بعد أي دليل على وجود جوناثان سمول من الأساس، لكن إن كان بإمكانك إلقاء القبض عليه، فلا أرى مانعًا من أن تجري معه مقابلة ودية، ألديك أي طلبات أخرى، ألا تريد جوهرة من التاج الملكي؟

هز هولمز رأسه متجاهلًا سخرية جونز، وتابع:

- طلب أخير، أنا أصر على أن تتناول معنا العشاء، فسوف يكون جاهزًا في خلال نصف ساعة، فلديَّ محار وزوج من طيور السمان، وبعض الاختيارات القليلة من النبيذ الأبيض، ويمكنني أن أصنع عشاءً شهيًّا.

وإزاء دهشتي من عرضه السخي، قال موجهًا كلماته لي:

- أنت لم تتعرف بعد مهاراتي في التدبير المنزلي، أليس كذلك يا واطسون؟

الفصل العاشر
نهاية رجل الجزيرة

كانت وجبتنا بحق شهية للغاية، فلدى هولمز القدرة على أن يكون طباخًا بارعًا إن أراد ذلك وقد أراد ذلك تلك الليلة، فبدا أنه في حالة نشاط ذهني عالٍ لم أعهده قط، وراح يتحدث بهذه البراعة التي لم أعهدها به من قبل.

تحدث عن عدة موضوعات في تتابع سريع. تحدث عن مسرحيات المعجزات، وعن الخزف في العصور الوسطى، وعن آلات الكمان من صنع ستراديفاريوس، وعن البوذية في سيلان، وعن سفن الحرب المستقبلية، وتحدث عن كل منها كأنه درسه بتمعن وتخصص، كل هذا بحسه الفكاهي المتقد الذي حل محل حالة الاكتئاب العميق التي انتابته في الأيام السابقة، واتضح أن أثيلني جونز رجلٌ اجتماعي ودود للغاية خارج العمل، يتعامل مع طعام العشاء بحس ذواقة حقيقي، أما أنا فقد كنت أشعر بالسرور إزاء فكرة أن مهمتنا قاربت على الانتهاء، وانتابني شيء من سعادة، بينما لم يتطرق أيٌّ منا في أثناء تناوُل العشاء إلى السبب الذي اجتمعنا من أجله.

بعد أن رفعت الأطباق من المائدة نظر هولمز إلى ساعته، وصب ثلاثة كئوس من النبيذ القوي، وقال وهو يرفع كأسه:

- نخب نجاح مهمتنا الصغيرة.

ثم تجرع الكأس مسرعًا، وتابع ووجهه محتقن كالطماطم:

- والآن حان وقت الانطلاق، هل معك مسدس يا واطسون؟

- لديَّ مسدس الخدمة القديم في درج مكتبي.

- أرى أن تأخذه معك إذن، فمن الأفضل أن نكون مستعدين.

ثم نظر عبر النافذة إلى الشارع، وتابع:

- أرى عربة الأجرة تنتظر أمام الباب كما طلبت أن تأتي في الساعة السادسة والنصف.

استقللنا عربة الأجرة، وكانت الساعة قد تخطت السابعة بقليل عندما وصلنا إلى مرفأ ويستمنستر، وهناك وجدنا الزورق بانتظارنا.

نظر إليه هولمز متفحصًا، وقال:

- هل توجد أي علامة تدل على أنه زورقٌ تابِع للشرطة؟

- أجل، ذلك المصباح الأخضر على جانبه.

قالها قائد الزورق في لهجة عسكرية صارمة:

- أزِلْه إذن.

نفَّذ القائد ذلك التغيير البسيط بناءً على تعليمات هولمز، ثم صعدنا على متنه وجلست أنا وجونز وهولمز في مؤخرة الزورق، وكان هناك قائد الزورق ورجل يتولى تشغيل المحركات،

وجلس مفتش شرطة ضخم البنية في المقدمة.

سأل جونز وهو يراقب النهر:

- إلى أين نتجه؟

- ألدبرج، لندن، واطلب منهم أن يوقفوا الزورق قبالة ترسانة جاكوبسون للسفن.

كان الزورق سريعًا للغاية، فمررنا بسرعة بجانب الصفوف الطويلة من الصنادل النهرية المحملة بالبضائع كما لو كانت متوقفة، وابتسم هولمز ابتسامة رضا عندما أدركنا باخرة نهرية وسبقناها.

قال هولمز:

- يُفترَض أن نستطيع اللحاق بأي مركبة في النهر.

- ليس تمامًا، لكن ليس هناك زوارق كثيرة بإمكانها أن تسبقنا.

- هذا جيد يا سيد جونز، فينبغي أن نلحق بالزورق (أورورا) إذا حاول الهرب، وهو معروف بسرعته، سأشرح لك الوضع الحالي يا واطسون. هل تذكر كم كنت منزعجًا من أن تعترض طريقي عقبةٌ صغيرة كتلك؟

- بالتأكيد أتذكر.

فابتسم متابعًا:

- حسنًا، لقد منحت عقلي راحة تامة بأن انغمست في إجراء تحليل كيميائي بسيط وهو كان السبب في تلك الرائحة النفاذة. يقول أحد رجال السياسة ببلدنا إن تغيير طبيعة العمل هو أفضل راحة، وهو محقٌّ فعلًا، فعندما نجحت في إذابة الهيدروكربون الذي كنت أعمل عليه، عدت إلى قضية آل شولتو وفكرت في الأمر بأكمله بمنظور جديد، فلقد بحث صبياني في جميع أنحاء النهر ولم يجدوا الزورق، فلم يكن الزورق راسيًا في أي رصيف إنزال ولا مرفأ، كما أنه لم يعُد إلى مرفئه الأصلي، ومع ذلك ليس من المُرجَّح أن يكون المجرمون أغرقوه لإخفاء أثرهم، مع أن تلك الفرضية كانت ستظل قائمة حال انتفاء جميع الاحتمالات الأخرى، وقد كنت أعرف أن سمول ذلك يتمتع بدهاء إجرامي، لكني لم أتصور أن يكون قادرًا على القيام بشيء على ذلك المستوى العالي من المكر وسعة الحيلة، ثم فكرت في أنه إن كان موجودًا بلندن منذ بعض الوقت إذ لدينا دليل على أنه كان يراقب بونديتشري لودج باستمرار. فسيكون من الصعب أن يغادر على الفور؛ لأنه سيحتاج لبعض الوقت حتى وإن كان يومًا واحدًا لترتيب أموره، فهذا ما كانت ترجحه كفة الاحتمال على أي حال.

هززت رأسي كأني أزن الكلام، وقلت:

- يبدو لي احتمالًا ضئيلًا، فعلى الأرجح أنه رتب أموره بالفعل قبل أن يبدأ حتى في مهمته الشيطانية.

هز هولمز رأسه نافيًا، وتابع وهو يضع غليونه في طرف فمه:

- لا أظن ذلك، فإن وكره سيكون مخبأً قيمًا حال اضطر إلى أن يكمن قليلًا فيه حتى يتأكد من أنه يستطيع الاستغناء عنه، ومع ذلك تبادرت إلى ذهني فكرةٌ أخرى، فلا بد أن جوناثان سمول شعر بأن مظهر شريكه المميز مهما حاول إخفاءه سيثير الأقاويل، وقد يربط الناس بينه وبين مأساة

نوروود حتى ولو باحتمال بسيط، وهو يمتلك ما يكفي من الذكاء لإدراك ذلك؛ لذا فقد غادرا المخبأ في ظلام الليل، وخطط أن يعود قبل ضوء النهار، ولكن حسبما قالت السيدة سميث، إن الساعة قد تخطت الثالثة صباحًا عندما انطلقوا بالزورق، وكان أمامهم ما يقرب من ساعة واحدة قبل أن يسطع ضوء النهار؛ حسب توقيت لندن هذه الأيام، وسيكون الناس حولهم في كل مكان؛ لذا توصلت بعد تفكير بسيط إلى أنه لا يمكن أن يكونوا قد ابتعدوا كثيرًا.

ثم أمسك الغليون بيده، وراح يحركه كأنما يرسم لوحة على الهواء، وهو يتابع:

- لقد اشتريا صمت سميث بثمن ممتاز، واحتفظا بزورقه كوسيلة للهروب الأخير، وأسرعا عائدين إلى مسكنهما، ومعهما صندوق الكنز، وبعد بضعة أيام وبعد أن يتسنى لهما أن يطَّلِعا على تعليقات الصحف تجاه القضية، ويتأكدا من أنه لم تطلهما أي شبهة، سوف ينطلقان تحت ستار الليل في طريقهما إلى سفينة في جريفسيند أو داونز، ولا شك أنهما قد رتبا للسفر على متنها إلى أمريكا أو أيٍّ من المستعمرات البريطانية.

- لكن ماذا عن الزورق؟ أين سيتركونه؟ أين سيرسون؟ فلا يمكن لهما أن يأخذاه معهما إلى مسكنهما.

ابتسم ابتسامته الهادئة الواثقة، وراح يواصل إبهاري كما اعتاد:

- بالطبع، فقد توصلت إلى أن الزورق سيرسو في مكان قريب من مخبئهم، مع أنه غير ظاهر حتى الآن، ثم وضعت نفسي مكان سمول ونظرت للأمر من وجهة نظره، فرجل بنفس قدراته سيفكر على الأرجح في أن إعادة الزورق أو الاحتفاظ به في مرفأ سيسهل على الشرطة مطاردته حال تعقبها له، إذن كيف يمكنه إخفاء الزورق مع إبقائه تحت تصرفه حين يحتاج إليه؟ تساءلت: ماذا كنت سأفعل لو كنت في مكانه؟ ولم تخطر على بالي إلا طريقة واحدة. كنت سأوقف الزورق عند مصنع أو ورشة إصلاح مراكب، وأطلب منهم إحداث تغيير طفيف به في لونه أو شكله، وبذلك سيختفي عن الأنظار تمامًا، لكن في نفس الوقت يمكنه استعادته عندما يحتاج إليه.

- اسمح لي يا هولمز، لكن هذا التصور يبدو بديهيًّا جدًّا وبسيطًا جدًّا.

اتسعت ابتسامته وسرحت عيناه تجاه النهر، وهو يراقب الصنادل المتحركة ببطء على صفحته الرمادية:

- عادةً ما تكون تلك الأشياء البديهية هي الأكثر عرضة لإغفالها يا عزيزي واطسون، لكني أصررت على التصرف بناءً على تلك الفكرة البسيطة، فانطلقت على الفور بزي البحار المسالم هذا، وسألت جميع ترسانات وورش إصلاح السفن على طول النهر، لكني فشلت في إيجاده في خمس عشرة منها، ولكن في السادسة عشرة وهي ترسانة جاكوبسون عرفت أنهم استلموا زورقًا يحمل مواصفات الزورق (أورورا) من رجل له ساقٌ خشبية طلب بعض التغييرات الطفيفة في دفته، وقال كبير العمال هناك إنه لا توجد مشكلة في دفته، لكنه ليس من شأنهم طالما سيدفع، وفي تلك اللحظة من حظي الحسن دخل موردخاي سميث مالك الزورق بذاته وكان مخمورًا، وبالتأكيد لم أكن لأعرفه لولا أنه صاح باسمه واسم زورقه بصوت أجش، وقال: «أريده الليلة في الساعة الثامنة، في تمام الثامنة؛ لأن معي رجلان لا يطيقان الانتظار»، ثم راح يُلوِّح بالمال، وكان يوزع الشلنات على العمال ليسرعوا، فتبعته قليلًا لكنه دخل إلى حانة ضيقة؛ لذا عدت إلى الترسانة، وقابلت صدفة أحد صبيان قواتي اللانظامية في طريقي، وكلفته بمراقبة الزورق، فهو

سيقف على حافة النهر ويُلوِّح لنا بمنديله عندما ينطلقون بالزورق، ونحن سنكون مختبئين في النهر، وساعتها سنمسك بالرجلين وبالكنز كذلك.

أطلق جونز ضحكة عالية، وقال:

- بحق الشيطان، لقد خططت للأمر بطريقة جيدة جدًّا، سواء كانا هما الرجلين المطلوبين أم لا، لكن لو كان الأمر بيدي لأرسلت قوة شرطة إلى ترسانة جاكوبسون وألقيت القبض عليهما عندما يذهبان إلى هناك.

- لا أستبعد أن يكون سمول قد كلف أحدهم بمراقبة الترسانة، وفي هذه الحالة لن يذهبا أبدًا؛ فسمول هذا رجلٌ شديد الدهاء.

قلت والحيرة تملؤني:

- كان بإمكانك أن تتعقب موردخاي سميث حتى يدلك على مخبئهما، فلماذا هذه الخطة المعقدة؟

- كنت سأضيع يومي هباءً إن فعلت ذلك. أعتقد أن احتمال أن يعرف سميث أين يقيمان ضئيلٌ جدًّا، وربما كانت هذه الحانة الضيقة هي مكان تلقيه التعليمات، فما دام لديه خمر وأجرٌ جيد فلِمَ يطرح الأسئلة؟ إنهما يرسلان له رسائل بالأوامر. كن واثقًا يا واطسون أنني لفكرت في كل الخطط الممكنة وهذه أفضلها.

في أثناء ذلك الحديث الشيق، كنا نمر بسرعة تحت سلسلة الجسور الطويلة المبنية فوق نهر التيمز، وآخر أشعة للشمس في سبيلها إلى الاختفاء خلف الصليب الموجود على قمة كاتدرائية سانت بولس، ونحن نمر بمدينة لندن، وكان الغسق قد حل عندما وصلنا إلى البرج.

قال هولمز وهو يشير إلى مجموعة كبيرة من الصواري والحبال على جانب النهر:

- هذه هي ترسانة جاكوبسون، والآن حتى لا يشك فينا أحدهم، سنبحر بهدوء جيئةً وذهابًا مستترين خلف صف مراكب الشحن الكبيرة هذه.

ثم أخرج نظارة مُكبِّرة ليلية من جيبه، وراح يمسح الشاطئ بعينيه مطولًا، ثم علَّق قائلًا:

- أرى الفتى مراقبي في مكانه، لكنه لم يُلوِّح بالمنديل بعد.

قال جونز بحماس أحمق:

- ألا يمكن أن نبحر لمسافة قصيرة باتجاه التيار، ثم نتوقف بانتظارهم؟

فقد كنا جميعًا متحمسين حينها حتى رجلا الشرطة اللذين لم يكن لديهما فكرةٌ واضحة عما يحدث.

فأجاب هولمز ورأسه يتأرجح يمينًا ويسارًا:

- لا ينبغي أن نأخذ أي شيء على أنه أمرٌ مُسلَّم به. من المُرجَّح بالطبع أن يبحروا باتجاه التيار، لكننا لسنا متأكدين تمامًا من ذلك، فمن موقعنا هذا يمكننا رؤية مدخل الترسانة، ويصعب عليهم هم رؤيتنا، وستكون السماء صافية الليلة حسب المرصد الجوي، وسيكون هناك ضوءٌ كافٍ كي نتتبعهم؛ لذا يجب أن نبقى في مكاننا، أترون كيف يحتشد أولئك الأشخاص هنالك في ضوء مصابيح الغاز تلك.

نظرنا في الاتجاه الذي أشار إليه، ثم قلت أنا معقبًا:

- إنهم يغادرون عملهم في ترسانة السفن.

- يبدون صعاليك رثِّي المظهر، لكني أعتقد أن كلًّا منهم يحمل في داخله شرارة عبقرية صغيرة لن تستطيع أن تراها أبدًا من خلف مظهرهم، حقًّا إن الإنسان لغز غريب!

علَّقت قائلًا:

- يصفه البعض بمقولة «إن الإنسان روح تسكن جسدًا حيوانيًّا».

قال هولمز معقبًا على كلامي:

- يتناول وبينود ريد ذلك الموضوع ببراعة، فهو يقول إن كل إنسان بذاته لغزٌ محير، لكنه وسط الجماعة يصبح حقيقة رياضية مؤكدة. على سبيل المثال لا يمكنك أبدًا التنبؤ بتصرف شخص واحد، لكن يمكنك بدقة معرفة كيف ستتصرف الجموع المتشابهة؛ فالأفراد يختلفون فيما بينهم، لكن النسب تظل ثابتة. هكذا يقول ذلك الإحصائي، ولكن هل أرى الآن منديلًا يتحرك؟ بالتأكيد أرى شيئًا أبيض يرفرف هناك.

صحت في حماس:

- أجل، إنه الصبي التابع لك، فأنا أراه بوضوح.

هتف هولمز:

- وهاهو الزورق (أورورا) ينطلق بسرعة كبيرة.

ثم نظر إلى قائد زورقنا، وصاح آمرًا:

- انطلق بأقصى سرعة خلف ذلك الزورق ذي الضوء الأصفر. يا إلهي لن أسامح نفسي أبدًا إن لم نستطع اللحاق بهم.

كان (أورورا) قد انسل دون أن يراه أحد من باب ترسانة السفن، ومَرَّ من وراء مركبين أو ثلاثة صغار الحجم، فوصل إلى سرعة عالية قبل أن نراه أو نلتقط إشارة الصبي، والآن فقد انطلق في اتجاه التيار بالقرب من شاطئ النهر بسرعة هائلة.

نظر جونز نحوه بأسى، وهز رأسه قائلًا:

- إنه سريعٌ جدًّا بحق السماء، أشك أننا سنستطيع اللحاق به.

صاح هولمز وهو يجز على أسنانه غاضبًا:

- لا بد أن نلحق به. زيدوا كمية الفحم واجعلوا الزورق ينطلق بأقصى طاقته، يجب أن نصل إليهم حتى لو كان ذلك يعني احتراق محركات الزورق.

استبد الحماس بطاقم الزورق، وارتفع هدير الأفران وأصدرت المحركات القوية أزيزًا وصليلًا؛ كأنها قلبٌ معدنيٌّ نابض وهي تعمل بأقصى طاقة لها، فشقت مقدمة الزورق الحادة المائلة صفحة النهر صانعة موجتين هائلتين عن يميننا ويسارنا، ومع كل خفقة تصدر من المحركات كان الزورق يهتز ويقفز بنا مثل كائن حي!

صاح هولمز وهو ينظر إلى الأسفل داخل غرفة المحرك، بينما يلفح الوهج الشديد الصاعد منها

وجهه التواق الذي يشبه في ملامحه النسر:

- زيدوا الفحم يا رجال، المزيد من الفحم يأتي بالمزيد من البخار.

فقال جونز وعينه على الزورق (أوروارا):

- هولمز أيها الشيطان.

- ماذا؟!

- نحن نقترب منهم.

فصحت أنا في حماسة:

- أنا متأكد من ذلك، وفي غضون بضع دقائق حتمًا سنلحق بهم.

لكن في تلك اللحظة لسوء حظنا قطع زورق يقطر ثلاثة صنادل الطريق بيننا وبين (أوروارا)، واضطررنا لأن نغير اتجاهنا بحدة باتجاه الريح؛ كي نتفادى الاصطدام بهذه الصنادل، وعندما أدرنا الدفة لنعود مرة أخرى إلى طريقنا، كان الزورق (أوروارا) قد ابتعد مسافة مائتي ياردة، لكنه كان لا يزال في مجال الرؤية، ومحركات زورقنا تعمل بأقصى طاقتها، ونحن نشق التيمز بعنف كسكين في قالب زبد، وبعد أقل من ساعة، أصبحنا نرى بوضوح أمامنا الزورق (أوروارا) الأنيق بعد أن كنا نراه مجرد كتلة معتمة تسبقنا في النهر، وما إن اقتربنا منه حتى وجه جونز كشاف زورقنا نحوه؛ كي نتمكن من رؤية الموجودين على سطحه بوضوح.

ثمة رجل يجلس في مؤخرة الزورق منحنيًا، رأسه متوجه نحو شيء أسود بين ركبتيه، وبجواره رأينا كتلة داكنة تبدو ككلب من سلالة نيوفاوند لاند، وصبي صغير يمسك بذراع الدفة، بينما رأيت سميث العجوز يقف عاري الصدر يملأ فرن المرجل بالفحم بكل ما أوتي من قوة.

ربما لم يكونوا متأكدين في البداية من أننا نطاردهم، لكن الآن أصبح الأمر واضحًا وضوح ضوء الكشاف العملاق، وعندما وصلنا إلى جرينتش كان يفصلنا عنهم حوالي ثلاثمائة خطوة لا غير.

كنا الآن نستطيع سماع صوت هدير محركاتهم بوضوح، والرجل في مؤخرة الزورق لا يزال جاثيًا على الأرضية ويحرك ذراعيه كما لو كان مشغولًا بفعل شيء ما، بينما كان بين الحين والآخر يرفع رأسه ليقيس ببصره المسافة التي تفصله عنا!

ظللنا نقترب منهم أكثر فأكثر، وراح جونز يأمرهم بالتوقف وتسليم أنفسهم، فقد أصبحنا خلفهم بمسافة لا تزيد على عشرين مترًا، وكلا الزورقين ينطلق بسرعة جنونية، وعلى إثر صيحة جونز هب الرجل الجاثي على الأرضية في مؤخرة الزورق واقفًا ولوَّح بقبضتيه لنا وهو يطلق السباب بصوت عالٍ مبحوح من أثر الرياح ودوامات الهواء.

كان رجلًا ضخم الجسد متين البنيان، وعندما وقف مباعدًا بين ساقيه ليوازن نفسه فوق سطح الزورق، رأيت ساقه الخشبية واضحة جلية، وعلى إثر صرخاته الحادة الغاضبة، تحركت الكتلة المكومة على أرضية الزورق والتي كانت تحتل المساحة أمامه، واعتدلت لتصبح رجلًا أسمر اللون صغير الحجم أصغر حجم لرجل رأيته في حياتي. له رأسٌ مشوهٌ ضخم تعلوه كومة من الشعر الأشعث المتشابك.

استل هولمز مسدسه بالفعل، وأخرجت أنا أيضا مسدسي عندما وقعت عينانا على ذلك الرجل المتوحش المشوه، الملتحف بشيء يشبه المعطف الواسع أو البطانية لا يكشف إلا عن وجهه

المفزع المتوحش، وعيناه الضيقتان تلمعان بوهج سوداوي مرعب، وشفتاه الغليظتان تنحسران عن أسنانه المتهالكة وهو ينظر نحونا بغضب حيواني جشع.

قال هولمز بهدوء وهو لا يُنزِل عينيه من على ذلك الشيء:

- أطلِق النار عليه فورًا إن رفع يده من جانب جسمه.

كنا حينها قد أصبحنا على بعد عشرة أمتار، وبينما نحن ننظر نحو ذلك الرجل المتوحش، أخرج من تحت غطائه أداة خشبية أسطوانية قصيرة تشبه المسطرة المدرسية، ووضعها بين شفتيه، وخديه يتكوران استعدادًا للنفخ بعنف، وحينها دوى صوت مسدسينا في الوقت ذاته فدار حول نفسه ورفع ذراعيه وهو ينظر نحونا في دهشة، ثم سقط من فوق سطح الزورق في قلب النهر ولمحت عينه الحاقدة المتوعدة بين الدوامات البيضاء في مياه النهر وهي تجرفه مبتعدًا.

وفي اللحظة ذاتها ألقى ذو الساق الخشبية بنفسه على الدفة، وأدارها بحدة كي يتجه زورقه ناحية الضفة الجنوبية للنهر، ونحن نطلق النيران على مؤخرة الزورق محاولين إجباره على التوقف، وفي غضون ثوانٍ كان قد أوشك على الوصول إلى الضفة بالفعل، الضفة التي تقع في مكان قريب من مصب النهر، مكان موحش ومنعزل، وضوء القمر يسطع فوق مساحة شاسعة من أراضي المستنقعات المرعبة، التي تنتشر بها برك من المياه الراكدة ومساحات من النباتات المتعفنة، وما إن اقترب (أورورا) من الضفة حتى ارتطم بها وصعدت مقدمته على الضفة الطينية وغمرت المياه مؤخرته، ثم قفز ذو الساق الخشبية منه محاولًا الهرب فوق الأرض الطينية الزلقة، لكن سرعان ما غاصت ساقه الخبيشة الثقيلة في أرضية المستنقع.

قاوم وتلوى محاولًا تخليص ساقه الخشبية لكن دون جدوى، فلم يكن باستطاعته التحرك خطوة واحدة للأمام أو الخلف وهو يصرخ بغضب عاجز ويركل الطمي بقدمه السليمة باهتياج، لكن محاولاته للمقاومة جعلت ساقه الخشبية تغور أكثر في طمي الضفة اللزج، وعندما رسا زورقنا بجانب زورقه كان قد أصبح عاجزًا تمامًا عن الحركة، لدرجة أننا اضطررنا إلى لف حبل حول وسطه؛ كي نتمكن من سحبه من الطمي وجره ناحيتنا كأننا نصطاد سمكة قرش عملاقة!

على سطح الزورق، كان سميث الأب والابن يجلسان في وجوم داخل زورقهما المنكوب، لكنهما سلما أنفسهما وصعدا على متن زورقنا دون اعتراض يُذكَر، ثم علَّق الرجال الحبال في مؤخرة (أورورا)، وربطناه بإحكام بمؤخرة زورقنا.

وعلى سطح (أورورا) وجدنا صندوقًا حديديًّا هندي الصنع، وكان هذا بلا أدنى شك هو الصندوق الذي يحوي كنز آل شولتو الملعون.

لم يكن للصندوق أي مفتاح، لكنه كان ثقيل الوزن؛ لذا نقلناه بحرص إلى مقصورة زورقنا الصغيرة، وبينما أبحرنا ببطء عائدين أدراجنا مبحرين عكس اتجاه التيار نحو وسط لندن.

قلت لهولمز وأنا أشير إلى الكوة الخشبية في سطح زورقنا:

- انظر إلى هذا السهم المغروز في الأخشاب، نحن محظوظان لأننا أطلقنا مسدسينا بسرعة كافية.

وعند الموضع الذي كنا نقف به بالضبط، وخلفنا على الأخشاب، استقر أحد تلك السهام القاتلة التي نعرفها جيدًا، فلا بد أنه مرق من بين رءوسنا في اللحظة التي أطلقنا فيها النار على ذلك الإنسان الوحشي الصغير.

نظر إليه هولمز مبتسمًا، وهز كتفيه بلا مبالاة، لكني أعترف بأني قد أصابني الغثيان لمجرد تخيُّل أحد تلك الأسهم يستقر في رقبتي أو رقبة هولمز.

الفصل الحادي عشر
كنز أجرا العظيم

جلس أسيرنا في المقصورة قبالة الصندوق الحديدي.

الصندوق الذي فعل الكثير وانتظر طويلًا كي يحصل عليه.

كان رجلًا قاسي الملامح له نظرة لا مبالية، وتغطي التجاعيد المتشابكة ملامح وجهه المائل إلى الحمرة؛ مما يُعبِّر عن حياة قاسية قضاها في العراء، وتستقر أسفل وجهه ذقن مربعة تدل على أنه ليس رجلًا يسهل إثناؤه عن غايته.

كان في الخمسين من عمره تقريبًا، فشعره المجعد الأسود اشتعل فيه الشيب.

كان يجلس الآن واضعًا يديه المكبلتين على حجره، خافضًا رأسه على صدره، وينظر بعينيه الثاقبتين اللامعتين إلى الصندوق الضخم، الصندوق الذي كان الدافع وراء أفعاله الشريرة، وبدا لي أن ما ارتسم على ملامحه القاسية المتماسكة هي تعبيرات الأسى أكثر منها شرارات الغضب، ثم رفع عينيه ونظر إليَّ وفي عينيه لمعة ساخرة مريرة.

قال هولمز وهو يشعل سيجارًا وينفث دخانه في الهواء العليل:

- يؤسفني أن الأمور آلت إلى هذا يا جوناثان سمول.

فأجاب سمول بهدوء وبصدق:

- وأنا كذلك يا سيدي، فلا أعتقد أن بإمكاني الإفلات مما فعلت، ولكني أقسم لك أني لم أمس السيد شولتو، بل ذلك العفريت تونجا هو مَن أطلق عليه أحد سهامه الملعونة، ولم يكن لي يد في ذلك يا سيدي، لقد حزنت عليه كما لو كان أحد أقربائي؛ حتى إني جلدت ذلك الشيطان الصغير، لكن كان الأمر قد وقع بالفعل، ولم يكن بالإمكان إيقافه.

مد هولمز يده بسيجار صغير ناحية سمول قائلًا:

- خذ سيجارًا يا سيد سمول، ومن الأفضل كذلك أن تشرب بعض الويسكي من هذه القنينة الصغيرة، فأنت مبتلٌّ للغاية وقد تُصاب بالحمى، والآن قل لي، كيف كنت تتوقع أن يتغلب رجلٌ صغير الحجم وضعيف مثل ذلك البدائي على السيد شولتو الضخم، ويقيده بإحكام، بينما أنت تتسلق الحبل؟

- يبدو أنك تعرف الكثير عن الأمر كما لو كنت معنا يا سيدي، في الواقع كنت آمل ألا أجد أحدًا في الغرفة؛ فقد كنت أعرف عادات سكان المنزل جيدًا، وفي ذلك الوقت ينزل السيد شولتو للطابق السفلي عادةً ليتناول عشاءه.

ثم نفث سمول من دخان السيجار، وتابع:

- لن أخفي عنكم أي شيء بخصوص ذلك الأمر يا سيدي، فأفضل دفاع لي هو أن أخبركم بالحقيقة الكاملة. حسنًا، لو كنت قد وجدت ذلك الرائد العجوز شولتو لكنت ضربت عنقه دون ندم ولا لحظة تردد، ثم كنت سأشرب سيجارًا فوق جثته احتفالًا، لكن حظي الملعون

أوقعني في ابنه المسكين الذي لا أَكِن له أي ضغينة.

- حسنًا، أنت الآن في عهدة السيد أثيلني جونز من شرطة سكوتلانديارد، وسوف يحضرك إلى شقتي، وسأطلب منك أن تخبرني بحقيقة الأمر كله؛ حتى تزيح ذلك الأمر عن عاتقك؛ لأنك إن فعلت فقد أستطيع مساعدتك، فأعتقد أن بإمكاني إثبات أن تأثير السم كان سريعًا جدًّا لدرجة أن الرجل كان قد تُوفِّي بالفعل قبل أن تصل أنت إلى الغرفة.

هز جونثان سمول رأسه، وقال معقبًا:

- وهذا ما حدث يا سيدي بحق السماء، لم يخفني شيء في حياتي بقدر منظره المرعب يحدق في وجهي ورأسه مائل على كتفه بعد أن أنهى السم فعلته، وأنا أدخل عبر النافذة.

ثم غطى وجهه بكفيه متابعًا:

- كادت أحشائي تخرج رعبًا من ذلك المنظر يا سيدي، وكدت أقتل تونجا على فعلته تلك، لولا أنه فر هاربًا من المكان اتقاءً لشري، ولهذا ترك هراوته وكذلك بعض سهامه كما أخبرني لاحقًا، وأعتقد أن هذا ساعدكم نوعًا في اقتفاء أثرنا، مع أني لا أستطيع تخمين كيف وصلتم لنا! أنا لا أُكِن لكم أي ضغينة بسبب ذلك، مع أني أستغرب أن أقضي أنا صاحب الحق في نصف مليون من الجنيهات النصف الأول من سنوات عمري في بناء حاجز أمواج في جزر أندمان، وأقضي على الأرجح النصف الآخر منها أحفر مصارف للمياه في سجن دارتمور. لقد كان يومًا مشئومًا يوم وقعت عيناي على ذلك التاجر أشميت، وأصبح لي علاقة بكنز أجرا الملعون الذي لم يجلب على أيٍّ من مالكيه غير اللعنات؛ فقد تسبب هذا الكنز في مقتل التاجر، وجلب على الرائد شولتو الرعب والشعور بالذنب والقتل لابنه البكر، وسيجلب عليَّ العبودية المؤبدة في سجون جلالتها.

في تلك اللحظة أقحم أثيلني جونز وجهه الضخم وكتفيه العريضين داخل المقصورة الضيقة، وقال معلقًا:

- يا لها من جلسة عائلية ودية ممتعة! أعتقد أني أحتاج لبعض الويسكي من قنينتك يا هولمز، حسنًا، أعتقد أنه بإمكاننا الآن أن نتبادل التهاني بانتصارنا الكبير. خسارة أننا لم نقبض على الرجل الآخر حيًّا لكن لم يكن أمامنا خيارٌ آخر. برأيي يا هولمز أنك يجب أن تعترف بأن هروب الزورق كان وشيكًا، وأننا بذلنا أقصى ما بوسعنا كي ندركه.

قال هولمز في هدوء:

- العبرة بالنهايات يا سيد جونز، لكني لم أكن أتصور أن يكون (أورورا) سريعًا لهذا الحد.

- يقول سميث إنه أحد أسرع الزوارق الموجودة في النهر، بالمناسبة، هو يقسم بأنه لا يعلم أي شيء عن قضية نوروود تلك.

فصاح سجيننا مؤمنًا:

- هذا صحيح، لم يكن يعرف عنها أي شيء، فلقد اخترت زورقه؛ لأني سمعت أنه سريع جدًّا، ولم نخبره بأي شيء، لكننا دفعنا له مقابلًا جيدًا، ووعدناه أن يحصل على مكافأة مجزية إن وصلنا إلى سفينتنا المقصودة إزميرالدا في جريفسند والمتجهة إلى البرازيل.

فرد جونز قامته، وقال في اعتداد كاد يفجر بطني من الضحك:

- حسنًا، إن لم يكن قد ارتكب أي خطأ فسنضمن ألا يلحقه أي أذى، فقد نكون سريعين في إلقاء القبض على المشتبهين، لكننا لا نتسرع في إدانتهم أبدًا.

كان من المسلي ملاحظة كيف أن جونز قد بدأ بالفعل في نسب الفضل في نجاح عملية الاعتقال تلك لنفسه ولشرطته! وبالطبع استنتجت من الابتسامة الخفيفة التي ارتسمت على وجه هولمز أن ذلك لم يفته أبدًا.

قال جونز معقبًا:

- سنصل إلى جسر فوكسهول قريبًا؛ حيث المنزل الذي تقطن فيه الآنسة مورستن؛ لذا سوف تنزل يا دكتور واطسون أنت وصندوق الكنز هناك، ولا أحتاج لأن أذكرك بأني أتحمل على عاتقي مسئولية كبيرة بالسماح لك بالقيام بذلك، فهو أمر غير معتاد على الإطلاق، لكني لا أخلف اتفاقي أبدًا، ومن واجبي أن أرسل معك مفتشًا؛ لأن معك حمولة ثمينة جدًّا، فأنت بالتأكيد ستستقل عربة أجرة أليس كذلك؟

- نعم، بالتأكيد.

فرفع إصبعه نحو وجهي محذرًا، وهو يتابع:

- لا أحتاج لأن أحذرك يا دكتور، خذ حذرك، الصندوق في عهدتك، وأرجو أن تحضره معك إلى شقتكما بشارع بيكر، وستجدنا هناك جميعًا قبل أن نتابع طريقنا إلى مركز الشرطة.

أنزلوني عند فوكسهول ومعي الصندوق المعدني الثقيل ومفتش لطيف بشوش الوجه لمرافقتي، وبعد أن سارت عربة الأجرة لربع ساعة وصلنا إلى منزل السيدة سيسل فورستر، وفوجئت الخادمة بقدوم زائر في ذلك الوقت المتأخر من اليوم، وأخبرتني آسفة أن السيدة سيسل فورستر خرجت في بداية المساء، وفي الأغلب ستتأخر في العودة جدًّا لكن الآنسة مورستن في غرفة الاستقبال ويسعدها أن تستقبلني، فذهبت إلى غرفة الاستقبال حاملًا الصندوق، وتركت المفتش اللطيف ينتظر في عربة الأجرة.

كانت ماري الرقيقة تجلس أمام النافذة مرتدية رداءً أبيض شفافًا تزين ياقته وخصره مسحة خفيفة من اللون القرمزي، مرخية ظهرها في الكرسي المصنوع من الخوص ويداعب ظل المصباح الساقط عليها قسمات وجهها العذب الحزين، ويصبغ خصلات شعرها الغزير بلمعة معدنية خفيفة، تجلس مستغرقة في حزن عميق، ثم أجفلت عندما سمعت صوت خطواتي وشاب وجنتيها الشاحبتين احمرارٌ شديد من المفاجأة والسعادة، وهي تقول:

- سمعت عربة تقترب وظننت أن السيدة فورستر قد عادت مبكرًا، لكني لم أتصور قط أن يكون هذا أنت أيها الطبيب الكريم، والآن قل لي، أي خبر تحمل لي؟

قلت وأنا أضع الصندوق على الطاولة، وأتحدث بصخب؛ على الرغم من الحزن الذي وقر في قلبي:

- لقد جئتك بما هو أفضل من الأخبار يا عزيزتي، فأنا أحمل لك ما هو أفضل من أخبار العالم كلها، أحمل لك كنزًا.

نظرت إلى الصندوق الحديدي، وسألت ببرود غريب:

- أهذا هو صندوق الكنز إذن؟

- أجل، هذا هو كنز أجرا العظيم، نصفه ملكك والنصف الآخر ملك ثاديوس شولتو، ونصيب كل منكما بضع مئات من الآلاف أتتصورين ذلك؟ سيكون عائده السنوي لو أودعتيه في أحد البنوك يزيد على عشرة آلاف جنيه، ستكونين من أغنى الشابات في إنجلترا، أليس ذلك رائعًا؟

أعتقد أني ربما بالغت في اصطناع سعادتي، وأنها ربما لاحظت النبرة المصطنعة التي أصبغ بها تهانيَّ المزيفة وأخفي بها جرحي وحرجي؛ لأني رأيت حاجبيها يرتفعان قليلًا، وهي تنظر لي باستغراب، ثم قالت:

- الفضل يعود لك في حصولي عليه يا دكتور.

- لا، لا، في الحقيقة ليس لي، بل يعود الفضل كله لصديقي شيرلوك هولمز، فمهما بلغ ذكائي أو سرعة بديهتي فلم أكن لأتمكن من تتبع دليل صعب كهذا. دليل أربك حتى قدراته التحليلية العبقرية، ومع ذلك كدنا أن نفقده بالفعل في آخر لحظة.

- تفضل بالجلوس، واحكِ لي كل شيء يا دكتور واطسون.

جلست وسردت باختصار ما حدث منذ آخر مرة رأيتها، وكانت تستمع إلى سردي لمغامراتنا فاغرة فاها وعيناها تلمعان، وعندما تحدثت عن السهم الذي كاد يصيبنا شحب وجهها لدرجة أني خشيت أن تفقد وعيها من فرط شحوبها.

- لا تقلق يا عزيزي، أنا بخير الآن، فقط صُدِمت لمعرفة أنني عرضت أصدقائي لذلك الخطر المريع.

- لقد انتهى كل ذلك الآن فنحن لم نُصَب بسوء، وأعدك بأني لن أسرد عليك أي تفاصيل كئيبة أخرى، فلنُدِرْ دفة الحديث تجاه شيء مبهج أكثر، هاهو الكنز، فما الذي يمكن أن يثير البهجة أكثر من ذلك؟ لقد أخذت إذنًا بأن أحضره معي؛ لأني فكرت أنك قد ترغبين في أن تكوني أول مَن يراه قبل أن يقوموا بتقسيمه وتسليمه لكم لاحقًا.

قالت وهي تشرد ببصرها فوق سطح الصندوق:

- كنت أرغب كثيرًا في ذلك يا دكتور واطسون.

لكن صوتها كان خاليًا من أي حماس، كانت تتظاهر فقط أنها مهتمة، فدون شك كانت تظن أنه من غير اللائق من جانبها أن تبدو غير مبالية بتلك الجائزة التي كلفنا الحصول عليها كل هذا العناء.

قالت وهي تنحني فوق الصندوق تتفحصه متظاهرة بالاهتمام:

- يا له من صندوق جميل هذه زخارف يدويةٌ هندية! أليس كذلك؟

- بلى، فهو صناعة معدنية من ولاية بيناريس بلا شك.

صاحت مندهشة، وهي تحاول رفعه:

- وثقيل جدًّا أيضًا، ربما تكون قيمة الصندوق نفسه كبيرة، ولكن أين المفتاح؟

- لقد ألقاه سمول في نهر التيمز؛ لذا سأضطر لاستعارة قضيب المدفأة المعدني الخاص بالسيدة فورستر؛ حتى يمكنني فتحه.

كان في الجزء الأمامي من الصندوق مشبك قفل سميك وعريض مصنوع على هيئة تمثال بوذا

جالسًا، فأقحمت طرف العصى المعدنية تحته ولويته باتجاه الخارج مثل العتلة، فانفتح القفل محدثًا طقطقة عالية، وبأصابع مرتعشة فتحت الغطاء، ثم وقفنا نحملق به بدهشة.

فقد كان الصندوق فارغًا!

لا عجب أنه كان ثقيلًا جدًّا، فقد كان سمك الحديد المصنوع منه ثُلُثَي بوصة في كل جوانبه، واسعًا ومتقن الصنع ومتينًا؛ كأنه صُنِع ليحمل في داخله أشياء غالية الثمن، ولكن في تلك اللحظة بالتحديد لم يكن داخله حتى قطعة واحدة من المعدن أو المجوهرات، لقد كان خاليًا تمامًا!

قالت ماري مورستن بهدوء شديد:

- لقد اختفى الكنز!

عندما سمعت تلك الكلمات واستوعبت معناها، شعرت وكأن همًّا كبيرًا قد زال عن قلبي أخيرًا، لم أدرك كم أثقلني كنز أجرا إلا حين اختفى أخيرًا.

كان ذلك شعورًا أنانيًّا مني، لكني لم أفكر إلا في أن ذلك الحاجز الذهبي قد زال من بيننا، وأنها عادت من جديد ماري مورستن المربية البسيطة، وهتفت بسعادة من أعماق قلبي:

- حمدًا لله.

نظرت لي بابتسامة خاطفة متسائلة، وسألتني:

- لم قلت ذلك؟

تهدج صوتي، وقلت وأنا أمسك بيدها:

- لأنه أصبح بإمكاني أن أقترب منك مرة أخرى؛ لأني أحبك يا ماري، أحبك كأصدق ما أحب رجل امرأة، ولأن هذا الكنز وهذه الثروة عقدا لساني عن قولها، والآن بعد أن ضاعت الثروة وضاع الكنز، أصبح بإمكاني أن أخبرك كم أحبك، ولهذا حمدت الله.

ابتسمت في خجل فضممتها إليَّ، وهي تهمس في رقة:

- وأنا أيضًا أحمد الله؛ لأني أحبك يا جون، وأيًّا كان ذلك الكنز المفقود، فلن يشغل ذلك بالي بعد اليوم. فقد علمت في تلك الليلة أني وجدت كنزي.

الفصل الثاني عشر
قصة جونثان سمول

كان المفتش الذي تركته بعربة الأجرة رجلًا صبورًا للغاية، فقد مر وقت طويل حتى عدت إليه، ثم أظلم وجهه وتجهم عندما أريته الصندوق الفارغ.

قال بكآبة:

- هاقد ضاعت المكافأة، فإن لم تكن توجد أموال فلن أحصل على مكافأتي. كنا سنحصل على عشرة جنيهات لكل منا أنا وسام براون إن كان الكنز داخل الصندوق.

- السيد ثاديوس شولتو رجل غني، وأعتقد أنه قد يكافئك على مجهودك، سواء كان الكنز موجودًا أو لا.

لكن المفتش هز رأسه بخيبة أمل، وكرر:

- سيعتقد السيد أثيلني جونز أني لم أقم بعملي على أكمل وجه، وأننا فرطنا في الكنز.

وقد صدق تنبؤه بالفعل، فقد بدا وجه المحقق جامدًا جافًّا عندما وصلت إلى منزلنا بشارع بيكر، وأريته الصندوق الفارغ.

جلس رفيقي مسترخيًا في مقعده ذي الذراعين وعلى وجهه ذلك الهدوء المعتاد، بينما جلس جونثان سمول قبالته في تبلُّد وهو يضع ساقه الخشبية فوق السليمة، وعندما أريتهم الصندوق الفارغ استرخى في مقعده وضحك بصوت عالٍ.

قال أثيلني جونز بغضب:

- أنت الذي فعلت هذا يا سمول؟

- بالطبع أيها الشرطي المغوار، لقد خبأته حيث لن تطولوه أبدًا. إنه كنزي أنا وإن لم يكن بإمكاني الحصول على غنيمتي؛ فسأضمن ألا يحصل عليها غيري، وأنا أؤكد لكم أنه ليس لأحد حق فيه غيري أنا وثلاثة رجال محبوسين في زنازين المساجين في جزر أندمان، وبما أني أعلم الآن أنه ليس بإمكاني الحصول عليه، وكذلك هم...

ثم نظر إلى هولمز في تحدٍّ، وتابع:

- كنت أتصرف طوال الوقت لصالحهم هم أيضًا، تمامًا مثلما كنت أفعل لنفسي، فطالما لازمتنا علامة الأربعة وكانت شعارنا، وأعلم أنهم كانوا سيرغبون في أن أفعل ما فعلته بالضبط، وألقي الكنز في نهر التيمز بدلًا من أن يحصل عليه ورثة شولتو أو ورثة مورستن، فلم نفعل ما فعلناه بأشميت نحن الأربعة كي يصيروا هم أغنياء ونقبع نحن في السجون؛ لذا فستجدون الكنز حيث يرقد المفتاح وجسد تونجا الضئيل، في قاع التيمز الغاضب شديد التيار.

ثم نظر إلى جونز في سخرية، وتابع:

- عندما رأيت أن زورقكم سيدركنا حتمًا، ألقيت الكنز في النهر؛ لذا لن تخرجوا بأي مكاسب من هذه الرحلة أيها الشرطي المتحمس.

قال جونز بصرامة:

- أنت تخدعنا يا سمول، فإن كنت أردت إلقاء الكنز في التيمز حقًّا؛ لكان من الأسهل عليك إلقاء الصندوق بأكمله.

أجاب وهو يحدجه بنظرة جانبية خبيثة:

- لكان أسهل عليَّ أن ألقيه وأُسهِّل عليكم أن تستعيدوه لو كان داخل الصندوق الثقيل أيها الألمعي، فالرجل الذي يملك الذكاء الكافي لتعقبي يملك الذكاء الكافي لإخراج صندوق حديدي من قاع النهر، لكن بعد أن بعثرته في مجال خمسة أميال، فقد يصعب ذلك مهمته أكثر، ومع أنه آلمني بشدة أن أفعل ذلك، لكن عندما أدركتمونا جُنَّ جنوني، ورحت أبعثر الكنز في قاع النهر.

- هذا أمر جسيم جدًّا يا سيد سمول، وبصفتي ممثل العدالة فدعني أقولها لك، فإن كنت أعنت العدالة على أن تأخذ مجراها بدلًا من عرقلتها بتلك الطريقة؛ لأصبحت فرصك أفضل في أثناء المحاكمة.

صاح سمول وهو يكشر عن أنيابه وتعابير الغضب تحتل وجهه القاسي:

- العدالة! أي عدالة تلك؟ مَن صاحب الحق في هذه الغنيمة إن لم نكن نحن الأربعة، أين العدالة في إعطائها لمَن لم يستحقها يومًا؟ أتعرف كيف استحققتها، لقد قضيت عشرين عامًا طويلة في ذلك المستنقع الموبوء المسمى أندمان أعمل طوال ساعات النهار، وأقضي ساعات الليل مقيدًا داخل أكواخ المساجين القذرة، أعاني لدغات الناموس ونوبات الحمى وأتحمل تنمر رجال الشرطة المحليين الملاعين الذين يحبون صب جام غضبهم على أي رجل أبيض يُوكَل لهم حراسته. هكذا استحققت كنز أجرا أيها المفتش، ثم تأتي أنت الآن وتحدثني عن العدالة؛ لأني لم أتحمل شعور دفع الثمن كي يتمتع غيري بالكنز؟!

ثم خلع سمول قناع الهدوء، وخرج منه الكلام وعيناه تشتعلان غضبًا، وأصفاده تصطك من حركة يديه المنفعلة وهو يضغط على أسنانه متابعًا بصوت مكتوم:

- لأن أُشنَق عشرين مرة أو يغرس أحدهم جميع سهام تونجا في جلدي؛ خير لي من أن أقضي حياتي في زنزانة سجن، وأنا أعرف أن رجلًا آخر يعيش سعيدًا في قصر عالٍ متمتعًا بأموالي.

وعندما رأيته في ذروة غضبه وانفعاله، أدركت أن الرعب الذي تملك الرائد شولتو العجوز عندما علم بأن ذلك السجين الجريح يسعى وراءه، كان طبيعيًّا ومُبرَّرًا.

قال هولمز بهدوء معقبًا:

- لا تنسَ أننا لا نعلم أي شيء عن ذلك كله، فنحن لم نسمع قصتك بعد، ولا نعلم إلى أي مدى كانت العدالة في صفك.

قال سمول معقبًا، وقد هدأت فرائصه قليلًا:

- حسنًا يا سيدي، أنت لم تعاملني إلا بكل احترام حتى الآن، مع أنك مَن تسبب في وضع تلك الأصفاد حول يدي، ومع ذلك أنا لا أحمل لك أي ضغينة لقيامك بذلك. الأمر كله عادل وقانوني، ولكن إن كنت تريد سماع قصتي فلن أخفيها عنك، وكل كلمة مما سأحكيه لك هي الحقيقة المطلقة.

ثم بدأ جونثان سمول يحكي ونحن ننصت:

أنا رجل من ورسترشاير وُلِدت بالقرب من بيرشور، وأعتقد أنك ستجد العديد من أفراد عائلة سمول ما زالوا يعيشون هناك الآن، لكني في الحقيقة لم أكن أبدًا محل فخر لهذه العائلة، وأشك في أنهم كانوا سيسعدون لرؤيتي؛ فقد كانوا جميعهم أشخاصًا مستقرين من صغار المزارعين معروفين في الريف بحسن السمعة، بينما كنت أنا مشاغبًا نوعًا ما، لكن على الأقل عندما كنت في الثامنة عشرة تقريبًا أعفيتهم من مشكلاتي، فقد تورطت في مشكلة بسبب فتاة، ولم يكن بإمكاني الهرب منها إلا بالتطوع في صفوف الجيش والانضمام إلى الكتيبة الشرقية الملكية، والتي كانت حينها على وشك الانطلاق إلى الهند.

لكن لم يكن مقدرًا لي أن أواصل العمل في الجيش، فلم أكد أتعلم المشية العسكرية وكيفية استخدام بندقيتي عندما قادتني حماقتي لأن أذهب للسباحة في نهر الجانج، ولحسن حظي كان جون هولدر رقيب فرقتي في النهر في ذلك الوقت، وهو أحد أمهر السباحين في الخدمة، وقد هاجمني تمساح وأنا في منتصف الطريق للضفة الأخرى، وقضم رجلي اليمنى، وقطعها تمامًا من فوق الركبة مباشرة كأي جراح بارع.

فقدت وعيي بفعل الصدمة والنزيف، وكنت سأموت غرقًا؛ لولا أن أمسك بي هولدر وسبح بي إلى الشاطئ، وقضيت خمسة أشهر في المشفى؛ بسبب ذلك، وعندما أصبحت قادرًا على مغادرته سائرًا على قدمي بصعوبة بمساعدة ذلك العكاز الخشبي، وجدتني قد سُرِّحت من الجيش، وصرت غير لائق لأي مهنة تتطلب جهدًا بدنيًّا.

كان الحظ قد أدار ظهره لي في ذلك الوقت كما تتخيلون، فقد صرت كسيحًا عاطلًا، وأنا لم أبلغ بعد العشرين من عمري، لكن ما لبث أن اتضح لي أن سلسلة سوء حظي لم تكن قد انتهت، فقد احتاج رجل يُسمَّى أبلوايت قدم إلى البلاد لإقامة مزرعة لنبات النيلة، احتاج إلى مشرف لملاحظة العمال ومراقبتهم، وصادف أنه كان صديقًا للكولونيل الذي كان يوليني اهتمامًا منذ الحادث.

كي لا أطيل عليكم، رشحني الكولونيل لذلك المنصب، ولأن أغلب العمل كان من المفترض أن يُقضَى من على ظهر الحصان؛ فلم تمثل ساقي عقبة كبيرة؛ لأن الجزء المتبقي من ساقي كان يكفي لأن أتشبث جيدًا بالسرج، وكان كل ما عليَّ فعله هو أن أتجول بحصاني في المزرعة لأراقب الرجال في أثناء عملهم، وأبلغ عن المتكاسلين، والأجر مجزٍ ومحل إقامتي مريح، وكنت في المجمل قانعًا بقضاء ما تبقى من أيامي في مزرعة النبات تلك أعمل لدى السيد أبلوايت، الذي كان رجلًا طيبًا ودودًا، وكان كثيرًا ما يمر على كوخي الصغير كي يشاركني تدخين الغليون.

لكن كما أخبرتك يا سيد هولمز، حياتي سلسلة من سوء الحظ، ففجأة ودون سابق إنذار، اندلعت انتفاضة عظيمة ضدنا في الهند، بعد أن كانت قبلها بشهر فقط مجرد مقاطعة ريفية هادئة، وتحول البلد كله إلى جحيم، بالطبع أنتم تعرفون عن ذلك الأمر أيها السادة أكثر مما أعرف بكثير على الأغلب، فالقراءة ليست من اهتماماتي، وأنا لا أعرف إلا ما شاهدته بعيني هاتين.

كانت مزرعتنا تقع في مكان يُدعَى ماثورا بالقرب من حدود المقاطعات الشمالية الغربية للهند، وكل ليلة كانت السماء بأكملها تضيء بالنيران المشتعلة في البيوت الريفية القريبة من آثار الاشتباكات، وكل يوم تمر بأرضنا جماعات صغيرة من البيض بزوجاتهم وأطفالهم في طريقهم إلى أجرا؛ هربًا مما يحدث؛ حيث كانت تتمركز أقرب قوات عسكرية بريطانية.

كان صاحب المرزعة السيد أبلوايت رجلًا عنيدًا؛ فقد كان يتصور أن الناس يعطون الأمر أكبر

من حجمه، وأن كل شئ سيهدأ فجأة كما بدأ، وداوم على الجلوس في شرفته يحتسي الويسكي الممزوج بالصودا، ويدخن سجائر الشيروت، بينما كان البلد يحترق من حوله، وبالطبع اخترنا البقاء معه أنا وداوسن الذي كان يساعده هو وزوجته في أعمال الإدارة، وفي أحد الأيام السوداء، حدثت الفاجعة.

كنت يومها أعمل في أطراف المزرعة، وبينما أنا عائد في المساء ممتطيًا جوادي، وقعت عيناي على كومة سوداء في أسفل مجرى مائي صغير منحدر، فاقتربت على جوادي لأتبينها وصُعِقت عندما وجدت أنها جثة زوجة داوسن، وقد قُطِّعت إلى أشلاء، ونهشتها الكلاب وبنات آوى، وعلى مسافة غير بعيدة منها كان داوسن نفسه مستلقيًا على وجهه، وقد فارق الحياة وفي يده مسدسه، وأمامه تستقر جثث أربعة مجندين هنود.

شددت عنان جوادي وأنا في حيرة من أمري، فإلى أين أذهب؟! ربما كان المنزل الريفي قد احترق هو الآخر.

وكأنني أقرأ الطالع الأسود، رأيت الدخان الكثيف يتصاعد من بيت السيد أبلوايت، وألسنة النيران قد بدأت تتصاعد عبر سطحه، وحينها أدركت أني إن حاولت التدخل فلن أستطيع مساعدة رب عملي، بل سألقي بنفسي إلى التهلكة؛ فمن مكاني كنت أرى مئات المحليين الفوضويين بمعاطفهم الحمراء الزاهية وهم يحتفلون بإحراق البيت؛ لذلك انطلقت هاربًا عبر حقول الأرز، حتى وجدت نفسي بحلول الليل داخل أسوار مدينة أجرا الآمنة.

لكن سرعان ما اتضح لي أنه حتى أجرا لم تكن آمنة تمامًا؛ فقد كانت البلدة بأكملها مزدحمة مثل خلية نحل، فأينما استطاع الإنجليز التجمع في مجموعات صغيرة كانوا يسيطرون فقط على المواقع التي يستطيعون التحصن داخلها وحمايتها بالسلاح، بينما خارج تلك الأحياء المحصنة، كانوا مجرد هاربين لا حول لهم ولا قوة.

كانت معركة يخوضها الملايين ضد المئات، وأصعب شيء فيها هو أن أولئك الرجال الذين كنا نقاتلهم من جنود المشاة والخيالة والمدفعية كانوا المجندين الذين انتقيناهم وعلَّمناهم ودرَّبناهم، والآن هم يقاتلوننا بأسلحتنا، وينفخون في أبواقنا في أجرا!

اجتمعت كتيبة المشاة البنجالية الثالثة، وبعض الجنود السيخ، وفرقتا خيالة وكتيبة مدفعية وتكونت هيئة تطوعية من المتعلمين والتجار لحماية الإنجليز في أجرا، وقد انضممت إليها على الرغم من ساقي الخشبية وإعاقتي الواضحة، وخرجنا للقاء المتمردين المحليين في شاهجونج في مطلع شهر يوليو، وأجبرناهم على التراجع لبعض الوقت، ولكن ما إن نفدت ذخيرتنا القليلة بالأساس، حتى اضطررنا إلى التراجع إلى داخل أسوار المدينة من جديد.

وأجرا يا سادة مدينة كبيرة، تعج بجميع أنواع الهندوس المتطرفين والمحليين المتوحشين، ورجالنا المعدودون كانوا لا يقدرون على مجاراتهم في أزقتها الضيقة، ولهذا عبر الجنرال النهر بنا، واتخذ من الحصن القديم بمدينة أجرا مقرًّا لنا لحمايتنا حتى تصل قوات الدعم.

لا أعلم إن كان أيٌّ منكم أيها السادة قد قرأ أو سمع أي شيء عن ذلك الحصن القديم في المدينة، إنه في الحقيقة مكان غريب للغاية، بل هو أغرب مكان رأيته في حياتي.

كانت مساحته ضخمة جدًّا، تمتد مساحة الأراضي داخل أسواره لعدة أفدنة شاسعة، وجزء منه حديث البناء وهو الذي استوعب حاميتنا، فأسكنا فيه نساءنا وأطفالنا ومؤننا وكل شيء آخر

ذي قيمة، ومع ذلك ظلت هناك مساحة كبيرة شاغرة داخل هذا البناء العملاق، لكن حجم ذلك الجزء حديث البناء لا يُقارَن بحجم المبنى القديم الذي لا يقترب منه أحد، وتسكنه العقارب والأفاعي والهوام.

كان البناء يشبه القصر في ضخامته، مليئًا بالردهات المهجورة والأروقة التي تتفرع منها أروقة والممرات الطويلة الملتوية؛ لذا يسهل أن يضل المرء فيه طريقه حتى يفنى، ولهذا السبب نادرًا ما كان يدخله أحد، إلا من بعض الحملات الاستكشافية القصيرة المرتعدة.

ولأن النهر يجري بمحاذاة أسوار الحصن القديم، فقد كان يحمي تلك الجهة من الحصن حماية طبيعية، لكن كانت توجد العديد من الأبواب على الجوانب وعلى الواجهة الخلفية، وبالطبع كان من الضروري حراستها على الرغم من أننا ينقصنا الرجال، وبالكاد كان عددهم كافيًا لحراسة جميع زوايا المبنى واستخدام الأسلحة الثقيلة عند الحاجة؛ لذا كان من المستحيل وضع حراسة قوية وصارمة على كل بوابة من البوابات العديدة للحصن العملاق.

لذا فقد كنت أشعر بالفخر الشديد لتولي تلك المهمة البسيطة والخطيرة؛ نظرًا لأني كنت لا أزال مجندًا جديدًا بساق عرجاء، ولليلتين على التوالي توليت نوبة الحراسة مع الجنديين البنجابيين، وهما رجلان طويلا القامة بملامح شرسة لا تلين، أحدهما يُدعَى محمد سينج، والآخر عبد الله خان، وكلاهما كانا رجلي حرب قديمين حملا السلاح ضدنا في معركة (تشيليانوالا) قبل أن تصبح الهند تحت حمايتنا، وكانا يجيدان التحدث بالإنجليزية بطلاقة، لكني لم أستطع تشجعيهما على الحديث معي إلا قليلًا، فقد كانا يفضلان الوقوف معًا والثرثرة طوال الليل بلغة البنجاب الغريبة تلك، أما أنا فقد اعتدت أن أقف خارج البوابة أنظر إلى النهر المتعرج العريض وأضواء المدينة الكبيرة المتلألئة.

كان قرع الطبول ورائحة الماسالا وصياح المتمردين وعواؤهم وهم في غير وعيهم من أثر الأفيون وعشبة القنب المخدرة؛ كان كفيلًا بتذكيرنا طوال الليل بجيراننا الخطرين المنفلتين على الجانب الآخر.

وفي الليلة الثالثة قضيت نوبة حراستي وسط الظلام والوحل مع هطول المطر العنيف، وأصبح الوقوف في المدخل في مثل ذلك الطقس ساعة تلو الأخرى أمرًا موحشًا وشديد الخطورة، وقد حاولت مرارًا أن أحمل الرجلين على الحديث معي لكن دون جدوى، وفي الثانية صباحًا مرت دوريات التفتيش وكسرت ضجر الليل لوهلة، وبعد أن فقدت الأمل في فتح حديث مع رفيقَي أخرجت غليوني وتركت بندقيتي؛ كي أشعل عود الثقاب، وفي تلك اللحظة انقض عليَّ الرجلان؛ فخطف أحدهما بندقيتي وصوبها إلى رأسي، بينما وضع الآخر سكينًا كبيرة على عنقي، وأقسم وهو يجز على أسنانه أن يغرسها في جسدي إن صدرت مني أي حركة.

ظننت للوهلة الأولى أن هذين الرجلين متواطئان مع المتمردين المتوحشين، وأن تلك بداية هجوم مدبر لإسقاط بوابتنا في أيدي المتمردين الهنود، ومن ثَم إسقاط ذلك الحصن حتمًا، وستُعامَل نساؤنا وأطفالنا كما عوملوا في كاونبور سابقًا وبمنتهى الوحشية.

قد تظنون أيها السادة أني أقول ذلك كي أبدو نبيلًا قلقًا على أرواح البشر، لكني أقسم لكم أني عندما راودتني تلك الفكرة، ومع أني كنت أشعر بحد السكين على عنقي فتحت فمي وأنا أنوي الصراخ لتنبيه حراس المركز الرئيس حتى ولو كانت هذه صرختي الأخيرة، وبدا أن الرجل الذي كان يمسك بي قرأ أفكاري لأني وأنا أستجمع قوتي لأصرخ همس في أذني قائلًا بحدة:

- لا تُحدِث جلبة فهذا الحصن بأمان ولا يوجد متمردون على تلك الجهة من النهر، ستفهم كل شيء.

كان ثمة شيء صادق فيما يقوله وكنت أعرف أني إن رفعت صوتي فسيقتلني بلا تفكير، فقد كنت أرى ذلك في عينيه البنيتين؛ لذا أغلقت فمي منتظرًا سماع ما يريدان مني.

قال الأطول والأشرس بينهما ويُدعَى عبد الله خان:

- اسمعني يا صاحبِ، إما أن تنضم لنا الآن أو نسكتك للأبد، فالأمر أعظم من أن نتردد أو نفكر للحظة، إما أن تكون معنا قلبًا وقالبًا، وتقسم بصليبك على ذلك، أو نلقي بجثتك الليلة في قاع النهر، لا يوجد اختيار آخر، فماذا تختار؟ الحياة أم الموت؟ أمامك ثلاث دقائق لتقرر؛ فالوقت يمر ويجب أن نفعل ما يجب علينا فعله قبل أن تمر الدوريات مرة أخرى.

قلت وأنا أرتعد كالشجرة الهزيلة:

- وكيف لي أن أقرر وأنتما لم تخبراني ماذا تطلبان مني حتى الآن، لكني أقول لكما إن كان ما تطلبانه سيُعرِّض الحصن لخطر الاقتحام، فلن أشارك فيه أبدًا؛ لذا يمكنك أن تجز عنقي الآن إن أردت.

لا، لن يُعرَّض الحصن للخطر فكل ما نطلبه منك هو أن تفعل ما أتى بأهل بلادك إلى هنا من الأصل، كل ما نطلبه منك هو أن تصبح غنيًّا إن انضممت لنا الليلة، ونحن سوف نقسم على حد السكين ثلاثًا أن تحصل على حصتك العادلة من الغنيمة، وسيكون ربع الكنز ملكك.

- لكن ما ذلك الكنز؟ ثم أنا على أتم الاستعداد لأن أصبح ثريًّا إن أخبرتماني ما السبيل إلى ذلك طبعًا؟

ابتسم عبد الله خان، ثم قال:

- أتقسم إذن برفات أبيك وشرف أمك وصليبك المقدس ألا تبطش علينا بيدك أو تتحدث عنا بسوء الآن أو بعدئذ؟

- أقسم على ذلك؛ بشرط ألا يتعرض الحصن للخطر.

ربت على كتفي مطمئنًا، وتراخت قبضة محمد سينج من حول رقبتي، ثم قال:

- إذن أقسم أنا ورفيقي أن نعطيك ربع الكنز الذي سنقسمه بالتساوي بيننا نحن الأربعة.

- لكننا ثلاثة فقط هنا!

- لا، بل يجب أن يحصل السيد دوست أكبر على حصته أيضًا، سوف نخبرك بالقصة بينما ننتظرهم.

ثم تابع عبد الله خان قائلًا:

- هلَّا وقفت أمام البوابة يا محمد سينج ونبهتنا لقدومهم. إذن يا صاحبِ سأخبرك بالأمر لأني أعرف أن الفرنجي يحترم يمينه ووعوده، وأنه بإمكاننا الوثوق بك، أما إن كنت هندوسيًّا كاذبًا لكنا أرقنا دمك وألقينا بجثتك في الماء، حتى وإن حلفت بكل الآلهة في معابدها المزيفة، لكن السيخ يعرفون الإنجليز كما يعرف الإنجليز السيخ، والآن أصغِ لما سأقوله لك.

وأردف يحكي:

- هناك في المقاطعات الشمالية يعيش أمير يحكم إحدى المقاطعات، ولديه ثروة طائلة، مع أن أراضيه ليست شاسعة، لقد ورث عن أبيه الكثير، وجمع الكثير أيضًا بنفسه، فهو بخيل بطبعه يكتنز الذهب ولا ينفق منه، وعندما اندلعت المشكلات صار حليفًا لكلا الطرفين؛ المتمردين المحليين، ورجال شركة الهند الشرقية، وسرعان ما بدا له أن أيام الرجال البيض قد ولَّت؛ فقد كانت أخبار موتهم والإطاحة بهم تأتيه من كل مكان، ولأنه رجل شديد الحرص؛ فقد وضع خطة تضمن له الاحتفاظ بنصف ثروته على الأقل مهما حدث، وقد احتفظ بالذهب والفضة بالقرب منه في خزائن قصره، ثم وضع أقيم الأحجار الكريمة النفيسة واللآلئ النادرة التي يمتلكها داخل صندوق حديدي ثقيل متقن الصنع، وأرسله مع خادم أمين متنكر في هيئة تاجر إلى حصن أجرا؛ كي يخبئه هناك حتى تستقر الأوضاع في البلاد، وبهذا إن انتصر المتمردون يكون لديه أمواله، وإن غلبهم جنود شركة الهند الشرقية فستكون جواهره في أمان، وبعد أن قسَّم ثروته على هذا النحو وجَّه جهده الكامل إلى دعم قضية المتمردين؛ لأنهم كانوا هم الأقوى على حدود مقاطعته، وبقيامه بذلك يا صاحبِ، صارت ممتلكاته حقًّا مكتسبًا لأولئك المخلصين لقضيتهم.

ثم راح يوضح خافضًا صوته القوي:

- أما ذلك الخادم المتنكر الذي يرتحل تحت اسم أشميت فهو موجود الآن في مدينة أجرا، ويريد أن يدخل إلى الحصن، ويرافقه في سفره أخي غير الشقيق دوست أكبر الذي يعرف سره، وقد وعده دوست أكبر بأن يرشده الليلة إلى بوابة خلفية جانبية للحصن، واختار تلك البوابة بالتحديد، وسيأتي إلى هنا عما قريب وسيجدني أنا ومحمد سينج بانتظاره، وكما ترى، فالمكان هنا معزول ولن يعرف أحد بقدومه، وسيختفي التاجر أشميت من على ظهر الأرض، وسنقسِّم كنز الأمير العظيم بيننا، والآن، ما قولك يا صاحبِ؟

ابتلع سمول ريقه بصوت مسموع، ثم راح يكمل حكايته:

في ورسترشاير حياة الإنسان لها هيبة وقدسية، لكن الأمر يختلف عندما تكون محاطًا بالنيران والدم وتعتاد أن تلاقي الموت عند كل زاوية، وأصدقكم القول، فلم أُعِر اهتمامًا لمسألة حياة التاجر أشميت أو موته؛ فلم يكن ثمة فرق بالنسبة إليَّ، لكن الحديث عن الكنز أشعل رغبتي في امتلاكه، وتصورت ما يمكنني فعله به عندما أعود إلى بلدتي القديمة في الجزر البريطانية، وكيف ستندهش عائلتي من عودة ابنهم العديم النفع، وقد امتلأت جيوبه بالعملات الذهبية.

حينها حسمت أمري بالفعل، لكن عبد الله خان ظنَّا منه بأني ما زلت مترددًا ألح عليَّ أكثر قائلًا:

- فكِّرْ يا صاحبِ، إن اعتقل قائد الوحدة ذلك الرجل فسيشنقه أو يرديه بالرصاص، وستستولي الحكومة على الكنز، ولن ينال أحد منه روبية واحدة، لكن بما أنه سيقع في أيدينا نحن؛ فلِمَ لا نستولي على الكنز، وستكون الجواهر في أمان معنا تمامًا كما لو كانت في خزائن شركة الهند الشرقية، وسيحصل كل منا على ما يكفي لجعله رجلًا ثريًّا عظيم الشأن لن يعرف أحد بالأمر؛ فنحن هنا بمعزل عن الجميع، فأين يمكننا العثور على مكان أنسب من هذا لتنفيذ غرضنا مرة أخرى؟ أخبِرْنا يا صاحبِ، هل أنت معنا أو نعُدُّك عدونا؟

أجبته مسرعًا:

- معكم بلا أي نقاش.

فأجابني وهو يناولني بندقيتي:

- هذا جيد، نحن نثق بك؛ فعليك الالتزام بكلمتك كما سنلتزم نحن بكلمتنا، ما علينا الآن سوى انتظار أخي والتاجر المزيف.

- هل يعرف أخوك بما تنوي فعله؟

- إنه صاحب الخطة يا صاحبِ، والآن سنذهب إلى البوابة، ونشارك محمد سينج في حراستها.

كان المطر لا يزال ينهمر، والسحب البنية الكثيفة تغطي السماء؛ مما يُصعِّب الرؤية إلا لمسافة قصيرة، وهناك خندق مائي أمام الباب؛ بسبب الأمطار الغزيرة، لكن كانت المياه قد جفت في مواضع أخرى من الأرض أمام البوابة، فكان عبورها ليس مستحيلًا.

فجأة لمحت بصيص مصباح مغطى على الجانب الآخر من الخندق، ثم اختفى بين أكوام الركام، ثم عاود الظهور مرة أخرى وهو يتقدم ببطء في اتجاهنا.

هتفت صائحًا:

- هاهما إذن.

فهمس لي عبد الله خان:

- ستعترض طريقه أنت يا صاحبِ كالمعتاد، ولا تفعل ما قد يثير خوفه، فقط أرسِلْنا إلى الداخل معه، وسنتكفل نحن بالباقي، وأنت ابقَ هنا للحراسة، واستعد لإزالة غطاء المصباح؛ كي نتأكد من أنه رجلنا المطلوب.

استمر الضوء في التأرجح نحونا، تارةً يتوقف وتارةً يتقدم، حتى ظهر جسمان داكنان على الجانب الآخر من الخندق، فتركتهما ينزلان ضفة الخندق المنحدرة، ويخوضان في الوحل، ثم يصعدان حتى منتصف الطريق إلى البوابة قبل أن أعترض طريقهما.

قلت بصوت خافت:

- مَن هناك؟

- صديقان.

رفعت الغطاء عن مصباحي؛ فغمر فيض من الضوء وجهيهما.

كان أحدهما بنجابيًّا ضخمًا له لحية سوداء تمتد حتى خصره تقريبًا، وفي حياتي لم أرَ رجلًا بذلك الطول إلا في العروض الترفيهية، أما الآخر فقد كان رجلًا قصيرًا بدينًا مكتنزًا يرتدي عمامة صفراء كبيرة، ويحمل في يده صرة ملفوفة بوشاح، وبدا كأنه يرتجف رعبًا؛ فقد كانت يداه ترتعشان كما لو أنه مصاب بالملاريا، وظل يتلفت برأسه يمينًا ويسارًا بعينين ضيقتين لامعتين مثل فأر يوشك على الخروج من جحره.

سَرَت في جسدي قشعريرة عندما فكرت في أننا على وشك قتل ذلك المسكين المرتعش، لكني تذكرت الكنز، وعندها تحجر قلبي في صدري، وحين رأى وجهي الأبيض أطلق صيحة سعادة قصيرة وأتاني يركض.

قال لاهثًا:

- أرجو حمايتك يا صاحبِ، أرجو حمايتك للتاجر التعيس أشميت. لقد قطعت راجبوتانا مسافرًا؛ كي أحتمي بحصن أجرا، لقد سُلِبت وضُرِبت واستُغلِلت؛ لأني مناصر للشركة، وستكون هذه ليلة سعدي إذ أصبحت آمناً مرة أخرى أنا وممتلكاتي المتواضعة.

- ماذا معك في هذه الصرة؟

- صندوق حديدي يحتوي على بضعة متعلقات عائلية لا قيمة لها لدى الآخرين، لكني سأحزن كثيرًا إن فقدتها، لكني لست متسولًا أيها الصاحب الشاب، وسأكافئك أنت وقائدك إن آويتماني كما أطلب.

لم أشأ أن أطيل الحديث مع الرجل أكثر من ذلك، فكلما أطلت النظر إلى وجهه الخائف؛ بدا قتله بدم بارد أصعب عليَّ.

كان من الأفضل أن ننهي الأمر سريعًا.

قلت موجهًا حديثي للبنجابيين:

- خذاه للمركز الرئيس.

حاصره الفتيان وتبعهم العملاق قريبهم، وعبروا جميعًا البوابة المظلمة.

في رأيي، لم يحاصر الموت أحدًا قط كما كان يحاصره من كل جانب في هذه اللحظة، بينما ظللت أنا واقفًا عند المدخل ممسكًا بالمصباح.

كنت أسمع وقع أقدامهم المنتظم يدوي في الممرات الخاوية، وفجأة توقفوا وتعالت أصواتهم، ثم سمعت شجارًا تلاه صوت ضربات سريعة، ثم بعد لحظة سمعت وقع خطوات سريعة تتجه نحوي ولهاث رجل يجري؛ مما أثار رعبي، وجهت مصباحي نحو الممر الطويل المستقيم؛ فرأيت الرجل البدين يجري بسرعة الريح والدماء تسيل من وجهه ووراءه يثب العملاق ذو اللحية السوداء مثل النمر، وفي يده سكين يلمع نصله.

لم أرَ في حياتي رجلًا يعدو بتلك السرعة، وعلى الرغم من ذلك؛ كان التاجر القصير متقدمًا في السباق، وكنت أعرف أنه إن تخطاني وخرج إلى العراء فسينجو بنفسه.

رق قلبي له لكن تفكيري في الكنز أقسى قلبي من جديد، فأطلقت النار من بندقيتي بين قدميه حين تخطاني وهو يعدو فتشقلب مرتين فَزِعًا مثل أرنب أُصِيب بطلقة، وقبل أن يحاول الوقوف على قدميه، كان العملاق قد انقض عليه وطعنه طعنتين بالسكين في جنبه بلا رحمة.

لم يئن الرجل أو يحرك ساكنًا، بل ظل مستلقيًا حيث سقط.

هأنا يا سادة أحكي لكم بلا زيادة ولا نقصان.

ثم سكت ومد يديه المكبلتين ليتناول كأس الويسكي الممزوج بالماء الذي أعده له هولمز.

بالنسبة إليَّ؛ أعترف كم كان الرجل بشعًا! ليس فقط لتورطه في تلك الجريمة الشنعاء، لكن أيضًا لأسلوبه الوقح واللامبالي في سرد تفاصيلها، فأيًّا كان العقاب الذي ينتظره شعرت بأني لن أتعاطف أبدًا معه.

جلس هولمز وجونز واضعين يديهما على ركبتيهما، وعلى وجهيهما ارتسمت نفس نظرة الامتعاض، قد يكون لاحظ هذا، فقد حمل صوته وأسلوبه نبرة تحدٍّ وهو يتابع كلامه قائلًا:

- كان ما فعلته أمرًا سيئًا للغاية بالتأكيد، لكني أود أن أعرف كم رجلًا إن وُضِع مكاني كان سيرفض أن يحصل على حصة من تلك الغنيمة إن كان يعرف أنه سيُذبَح إن رفض هذا، بالإضافة إلى أن حياته كانت مقابل حياتي؟ وبمجرد أن أصبح داخل أسوار الحصن؛ فإن كان قد فر من الحصن كان الأمر سينكشف برمته، وكنت سأخضع لمحاكمة عسكرية وأُعدَم رميًا بالرصاص على الأرجح؛ فالناس لا يتساهلون في مثل تلك الأوقات.

ساد الصمت لدقائق معدودة، ثم قال هولمز:

- حسنًا، تابِعْ روايتك.

فتابع جونثان سمول حكي قصته:

حملناه إلى الداخل أنا وعبد الله وأكبر، فقد كان مع قصر قامته ثقيل الوزن، وتركنا محمد سينج عند الباب لحراسته.

أخذناه إلى مكان كان الشابان قد أعداه سلفًا يبعد مسافة كبيرة عن البوابة، عن طريق ممر متعرج إلى ردهة كبيرة خاوية جدرانها المبنية من الطوب شبه متهدمة، وكان ثمة هبوط في أحد جوانب أرضيتها الطينية يبدو كقبر طبيعي، وهناك تركنا التاجر أشميت المطعون بعد أن غطيناه ببعض اللبنات، وبعد أن أتممنا ذلك عدنا جميعًا إلى الكنز.

كان الصندوق في مكانه حيث أسقطه التاجر عندما هاجموه للمرة الأولى، وهو نفس الصندوق الذي يستقر الآن فارغًا مفتوحًا على طاولتك، والمفتاح مربوط إليه بشريط حريري إلى المقبض المنقوش في أعلى الصندوق.

فتحناه، ولمعت تحت ضوء المصباح مجموعة من المجوهرات كتلك التي قرأت عنها وتخيلتها وأنا ولد صغير، فلمعانها يخطف الأبصار.

وبعد أن متعنا عيوننا بالنظر إليها، أفرغنا الصندوق، وأعددنا قائمة بمحتوياته من المجوهرات.

كان يحتوي على مائة وثلاث وأربعين ألماسة نقية، إحداها تُدعَى حسبما أظن المغولي العظيم، ويقال إنها ثاني أكبر ألماسة في العالم، وزمرد، وعدد كبير من أحجار الزبرجد، والعقيق اليماني، وعين القط، والفيروز، وأحجار أخرى لم أكن ملمًّا بأسمائها وقتها، مع أني عرفت عنها أكثر منذ ذلك الحين، بالإضافة إلى هذا كان ثمة حوالي ثلاثمائة لؤلؤة قيمة، اثنتا عشرة منها كانت تزين عقدًا من الذهب، وبالمناسبة كانت هذه اللآلئ قد أُخرِجت من الصندوق، ولم أجدها فيه عندما استعدته من شولتو الابن.

بعد أن حصرنا الكنوز أعدناها إلى الصندوق وحملناه إلى البوابة؛ كي نريه لمحمد سينج، وبكل جدية جددنا قسمنا بأن يقف كل منا بجانب الآخر، وأن نحفظ سرنا نحن الأربعة.

اتفقنا على أن نخبئ غنيمتنا في مكان آمن؛ حتى يعم السلام البلاد مرة أخرى، ثم نُقسِّمه بيننا، فلم يكن هناك داعٍ لتقسيمه في ذلك الوقت؛ لأنه إن عُثِر بحوزتنا على جواهر ثمينة كتلك فستُثار الشبهات، كما أنه لا وجود لأي خصوصية في الحصن، ولا يوجد مكان يمكن لنا الاحتفاظ بها فيه بأمان كأجزاء بلا صندوق.

لذا حملنا الصندوق إلى الردهة نفسها التي دفنا فيها الجثة، وهناك صنعنا تجويفًا خلف بعض اللبنات في الجدار الأكثر تماسكًا بالردهة، ووضعنا فيه كنزنا، وتذكرنا المكان جيدًا، وفي اليوم

التالي رسمت أربعة مخططات واحد لكل منا، ووضعت أدناها علامة الأربعة؛ فقد أقسمنا على أن يتصرف كل واحد منا لمصلحة الجميع؛ كي لا يعمل أي منا لمصلحته الشخصية، وبإمكاني أن أقسم بكل ثقة أني لم أخن هذا القسم أبدًا.

لا داعي؛ لأن أخبركم أيها السادة بالنتيجة التي آل إليها العصيان الهندي، فبعد أن سيطر ويلسون على دلهي وحرر السير كولن لكناو، قصم ظهر حركة التمرد وانهالت علينا قوات الدعم، وفر الصاحب نانا إلى خارج الحدود، وأتت وحدة برية بقيادة الكولونيل جريتهد إلى أجرا وأخلتها من المتمردين، وبدأ السلام يعم البلاد، وبدأنا نأمل نحن الأربعة أن الوقت الذي سنتمكن فيه من المغادرة بأمان بحصتنا من الغنيمة، أخيرًا قد اقترب.

ولكن تبددت آمالنا في لحظة، عندما قُبِض علينا بتهمة قتل أشميت.

حدث الأمر كما يلي، فحين عهد الأمير بجواهره لأشميت كان هذا لأنه يعرف أنه رجل أمين، لكن رجال الشرق يا سادة شكاكون بطبعهم، فقد عيَّن ذلك الأمير خادمًا آخر يثق به أكثر ليقوم بالتجسس على الأول، وأمر الخادم الثاني بألا يدع أشميت يغيب عن نظره أبدًا وأن يتبعه كظله.

وفي تلك الليلة رآه يعبر البوابة، فظن بالطبع أنه لجأ إلى الحصن طالبًا الأمان، وقدَّم هو الآخر طلبًا للدخول في اليوم التالي، وأصبح داخل الحصن، لكنه لم يستطع العثور على أشميت، فارتاب في الأمر، حتى إنه تحدث إلى رقيب الحراس الذي بدوره نقل كلامه إلى القائد، وعلى التو أُجرِيت عملية بحث دقيقة، واكتُشِفت الجثة داخل الجزء القديم المُهدَّم، وبالتالي في نفس اللحظة التي شعرنا فيها بأننا صرنا بأمان قُبِض علينا نحن الأربعة، ومثُلنا للمحاكمة بتهمة القتل، ثلاثة منا؛ لأنهم كانوا يحرسون البوابة في تلك الليلة، والرابع لأنه كان برفقة القتيل، ولم يأتِ أي ذكر للجواهر في المحاكمة؛ لأن الأمير كان قد عُزِل وطُرِد إلى خارج الهند؛ لذا لم يُعِرها أحد اهتمامها، ولم يأتِ أحدهم على ذكرها، لكن جريمة القتل اكتُشِفت، وكان من المؤكد أن لنا جميعًا يدًا فيها. حُكِم على البنجابيين الثلاثة بالسجن المؤبد مع الشغل، وحُكِم عليَّ بالإعدام، لكن خُفِّفت عقوبتي لتصبح مثل باقي رفاقي.

أصبح وضعنا صعبًا للغاية، كنا مكتوفي الأيدي نحن الأربعة، وفرصتنا في الخروج من السجن ضئيلة جدًّا، بينما نكتم في أعماقنا سرًّا كان سيجعلنا نسكن القصور لو أننا استطعنا الاستفادة منه، وكانت قلوبنا تنفطر؛ بسبب اضطرارنا لتحمُّل ركلات الحراس المتغطرسين وصفعاتهم، مع اضطرارنا إلى أكل الأرز وشرب الماء فقط، بينما تنتظرنا ثروة طائلة في الخارج، أصدقك القول يا سيد هولمز، كان من الممكن أن يدفعني ذلك للجنون وارتكاب جريمة أخرى، لكني لطالما كنت عنيدًا؛ فتمالكت نفسي، وظللت أترقب أي فرصة.

وأخيرًا، لاحت لي تلك الفرصة، فقد نُقِلت من أجرا إلى مدراس، ومنها إلى جزيرة بلير في جزر أندمان؛ حيث كان الرجال البيض قليلون جدًّا في تلك المستعمرة، ولأني أحسنت التصرف من البداية، وجدتني بعد فترة قصيرة قد صرت شخصًا له امتيازات! فقد أُودِعت كوخًا في هوب تاون، وهو مكان صغير يقع على منحدرات جبل هارييت، وتُرِكت أتصرف بحرية كبيرة.

إنه مكان موحش تتفشى فيه الحمى وخارج حدود أراضينا. مكان يعج بالسكان الأصليين المتوحشين آكلي لحوم البشر الذين كانوا على أتم استعداد لقتلنا بأسهمهم المسممة إن سنحت لهم الفرصة.

كان ثمة أعمال تنقيب وحفر خنادق وزراعة وعدة مهام أخرى؛ لذا كنا مشغولين طوال النهار،

لكن في المساء يتسنى لنا قضاء بعض الوقت، فكان من ضمن ما تعلمته تركيب عقاقير للطبيب الجراح مُساعَدة مني له، وألممت بمعرفة سطحية عن هذا المجال.

ظللت طوال الوقت أبحث عن فرصة للهروب، لكننا كنا نبعد مئات الأميال عن أي جزيرة أخرى، وكانت رياح بحار تلك المنطقة ضعيفة أو ساكنة؛ لذا كان الهروب من الجزيرة صعبًا للغاية.

الدكتور سومرتون الجراح، كان شابًّا نبيهًا ومحبًّا للعب القمار، وكان الضباط الشباب الآخرون يجتمعون في غرفته كل مساء للعب القمار.

كانت العيادة حيث أُركِّب العقاقير مجاورة لغرفة جلوسه، وبينهما نافذة صغيرة، وأحيانًا عندما كنت أشعر بالوحدة، كنت أطفئ مصباح غرفة الجراحة وأستمع إلى أحاديثهم وأشاهد لعبهم وأنا واقف بجوار تلك النافذة، وكنت أنا أيضًا مولعًا بلعب الورق، وعندما كنت أشاهدهم يلعبون كنت أشعر وكأني أشاركهم اللعب.

كان هؤلاء الضباط هم الرائد شولتو، والنقيب مورستن، والملازم برواون المسئولين عن قيادة القوات المحلية، بالإضافة إلى الجراح نفسه واثنين أو ثلاثة من مسئولي السجن وهم مهرة في اللعب، وكانوا يميلون إلى اللعب المضمون.

كانوا جماعة صغيرة هادئة.

لاحظت بعد فترة وجيزة أمرًا، وهو أن العسكريين كانوا يخسرون دائمًا، بينما كان الموظفون المدنيون يربحون دائمًا. لا أعني أنه كان هناك أي غش يحدث، لكن هكذا كان الوضع؛ فحراس السجن لم يفعلوا الكثير بخلاف لعب الورق منذ أن جاءوا إلى جزر أندمان، وكان كل منهم يعرف أسلوب الآخرين في اللعب إلى حد ما، بينما كان الضباط يلعبون لمجرد تمضية الوقت، وكانوا يرمون أوراقهم دون تخطيط.

ليلة تلو الأخرى كان الضباط يغادرون طاولة اللعب أفقر مما جلسوا إليها، وكلما ازدادوا فقرًا ازداد حماسهم للعب، والرائد شولتو أكثرهم تضررًا، فقد اعتاد أن يلعب بالأوراق النقدية والذهب في بادئ الأمر، لكنه سرعان ما صار يلعب بكمبيالات بمبالغ كبيرة، وأحيانًا يفوز بعدة جولات مما يثير حماسه، لكن ما يلبث أن يعاديه الحظ أكثر من ذي قبل، ثم يقضي النهار وهو يهيم على وجهه والغضب يملؤه، وأصبح يشرب الخمر بكميات كبيرة وبلا حساب.

ذات ليلة كانت خسائره تفوق المعتاد، وكنت جالسًا في كوخي عندما أتى يترنح هو والنقيب مورستن في طريقهما إلى مسكنهما.

كانا صديقين مقربين لا يفترقان أبدًا، وراح الرائد يتحدث بغضب عن خسائره.

سمعته يقول في أثناء مرورهما بجانب كوخي:

- لقد انتهى أمري يا مورستن، سأضطر إلى تقديم استقالتي، فقد أصبحت مفلسًا.

- هراء يا صديقي العزيز، لقد واجهت أنا أيضًا مشكلة صعبة، لكن...

ثم انقطع كلامهما، وكان هذا كل ما استطعت سماعه من حديثهما، لكنه كان كافيًا لأن يجعلني أفكر في خطة.

وبعد بضعة أيام كان الرائد شولتو يمشي على الشاطئ، فانتهزت تلك الفرصة كي أتحدث إليه.

- أريد أن أستشيرك في أمر أيها الرائد.

- حسنًا يا سمول ما هو؟

- أردت أن أسألك يا سيدي، مَن أفضل شخص قد تُسلِّم له كنزًا مخبأً؟ فأنا أعرف مكان إخفاء كنز يساوي نصف المليون جنيه، ولأني لا أستطيع الاستفادة منه بنفسي فكرت أن أسلمه للسلطات المعنية لعلهم يخففون عقوبتي.

شهق وقال وهو يحدق في وجهي ليتأكد من صدقي:

- نصف مليون يا سمول؟!

- هذا صحيح يا سيدي، وهي في صورة جواهر ولآلئ ترقد بانتظار من يأخذها، والغريب أن مالكها الحقيقي خارج عن القانون، ولا يحق له المطالبة بها؛ لذا فهذا الكنز ملك لأول مَن يضع يده عليه.

قال متلعثمًا وقد التقط الطعم:

- إلى الحكومة يا سمول؟! تسلمها إلى الحكومة؟!

لكنه قالها بتردد؛ فأيقنت حينها أني أثرت عليه.

- أتظن إذن يا سيدي أن عليَّ أن أعطي تلك المعلومة للحاكم العام.

- أرى ألا تتسرع في التصرف، وإلا فقد تندم. أخبِرْني القصة كلها يا سمول، أعطِني الوقائع.

أخبرته بالقصة بأكملها بعد أن عدلت بعض تفاصيلها؛ كي لا يتعرف الأماكن، وبعد أن انتهيت ظل واقفًا في مكانه لا يحرك ساكنًا، يفكر بعمق وكل رغباته تصطرع داخل نفسه المريضة.

وأخيرًا قال:

- هذا أمر خطير جدًّا يا سمول. لا تتفوه بكلمة عنه لمخلوق حتى أراك مرة أخرى عما قريب.

بعدها بليلتين أتى ومعه صديقه النقيب مورستن إلى كوخي في جوف الليل حاملين مصباحًا، وقال:

- أريد فقط أن يسمع النقيب مورستن القصة منك أنت يا سمول.

أعدت على مسامعهما القصة كما حكيتها من قبل.

- تبدو القصة حقيقية وجديرة بأن نتصرف بناءً عليها، أليس كذلك يا مورستن؟

أومأ النقيب مورستن.

نظر شولتو نحوي، وقال:

- اسمع يا سمول، لقد تناقشت أنا وصديقي هذا في الأمر، واتفقنا على أن سرك هذا لا شأن للحكومة به، فهو في النهاية أمر يخصك أنت، ولديك مطلق الحرية في التعامل معه حسبما ترى بالطبع. والآن السؤال الأهم، ما الثمن الذي تطلبه مقابل ذلك السر؛ فنحن قد نرغب في تولي ذلك الأمر إن استطعنا أن نتفق على الشروط بيننا؟

كان يحاول تصنُّع الهدوء واللامبالاة في أثناء حديثه، لكني كنت أرى الحماس والطمع يلمعان في

عينيه.

أجبت وأنا أحاول تصنُّع الهدوء نفسه بدوري:

- حسنًا أيها السادة، ثمة صفقة واحدة فقط يمكن أن يجريها أي رجل في موقفي. أريدكما أن تساعداني ورفقائي الثلاثة على أن نصبح طلقاء؛ عندها سوف نعتبركما شريكين لنا، ونعطيكما حصة الخُمْس تقتسمانها فيما بينكما.

- الخُمْس هذا ليس مغريًا بما يكفي.

- هذا يعني خمسين ألفًا لكل منكما.

فقال شولتو:

- لكن كيف سنمنحك حريتك؟ أنت تعلم جيدًا أن ما تطلبه مستحيل.

- على الإطلاق سيدي الرائد، لقد فكرت في ذلك الأمر بأدق تفاصيله، والمانع الوحيد لهروبنا هو أننا لا نستطيع الحصول على قارب يصلح للرحلة، ولا مؤن تكفينا لوقت طويل، توجد العديد من القوارب الشراعية الصغيرة واليخوت في كلكوتا أو مدراس تصلح لذلك الغرض، أحضِرا واحدًا إلى هنا، ونحن سنغادر على متنه ليلًا، وإن أنزلتمانا في أي مكان على الساحل الهندي فستكونان قد أتممتما دوركما من الصفقة.

- فقط لو كان علينا مساعدتك وحدك.

فأومأت برأسي رافضًا، وقلت:

- إما الجميع وإما لا أحد. لقد تعاهدنا على ذلك. يجب أن يتصرف أربعتنا دائمًا معًا.

- أرأيت يا مورستن؟ سمول هذا رجل يحفظ كلمته، ولا يدير ظهره لأصدقائه، وأعتقد أنه جدير بثقتنا.

أجاب مورستن في صرامة:

- هذا عمل غير قانوني. لكن كما تقول سوف يكون المال تعويضًا كافيًا، وزيادة عن رتبنا العسكرية، ويمكننا التفكير فيه.

- حسنًا يا سمول، أعتقد أننا سنحاول تنفيذ شرطك، لكن يجب أن نختبر صحة روايتك أولًا، أخبِرْني بمكان الصندوق، وسوف أحصل على إذن بالغياب، وأذهب إلى الهند على متن قارب الإغاثة الشهري؛ لأتحقق أكثر من الأمر.

قلت وأنا أزداد هدوءًا، بينما كان يزداد هو حماسًا:

- ليس بهذه السرعة يا سيدي، فيجب أن أحصل على موافقة رفقائي الثلاثة أولًا كما أخبرتكما، فإما الجميع أو لا أحد.

- هراء! ما شأن ثلاثة رجال سود باتفاقنا؟ سيوافقون ما دمت أنت موافق.

فقلت مصرًّا ومعترضًا بشدة:

- سود أو بيض. هم شركائي ولا بد أن نكون معًا.

انتهى الأمر ساعتها، ثم عُقِد اجتماع ثانٍ حضره محمد سينج وعبد الله خان ودوست أكبر،

وناقشنا الأمر مرة أخرى، وتوصلنا أخيرًا لاتفاق.

اتفقنا على أن نعطي الضابطين مخططات للجزء المخبأ به الكنز بحصن أجرا، ونحدد بها المكان الذي خبأناه فيه خلف الجدار.

كان من المفترض أن يذهب الرائد شولتو إلى الهند؛ كي يتحقق من صحة كلامنا، وإن وجد الصندوق، كانت الخطة أن يتركه في مكانه ويرسل زورقًا صغيرًا مزودًا بما يكفي من المؤن لرحلتنا، وأن ينتظرنا على مقربة من ساحل جزيرة روتلاند؛ حيث من المفترض أن نتجه، ثم يعود هو إلى ممارسة مهامه، وبعدها يقدم النقيب مورستن طلب إجازة ويقابلنا في أجرا، وهناك نُقسِّم الكنز بصفة نهائية، ويأخذ نصيبه ونصيب الرائد منه، وتعاهدنا على ذلك بكل التعهدات والأقسام.

سهرت طوال الليل ممسكًا بالورق والقلم، وبحلول الصباح كنت قد انتهيت من تجهيز المخططين، وذيلتهما بعلامة الأربعة، عبد الله، وأكبر، ومحمد، وأنا.

والآن أيها السادة، ولقد أرهقتكم بروايتي الطويلة، وأنا أعرف أن صديقي السيد جونز يتوق لوضعي خلف القضبان، سوف أختصر قدر الإمكان.

بالطبع ذهب النذل شولتو إلى الهند، لكنه لم يعد مرة أخرى، وأراني النقيب مورستن اسمه في كشف المسافرين على متن أحد قوارب البريد بعدها بفترة وجيزة، وتُوفِّي عمه تاركًا له ثروة فترك الجيش، إلا أن ذلك لم يثنه عن التصرف تجاهنا نحن الخمسة بتلك الدناءة.

ذهب مورستن إلى أجرا بعدها بفترة وجيزة ليكتشف .كما توقعنا. أن الكنز قد اختفى، فقد سرقه ذلك المحتال بأكمله دون أن يفي حتى بشرط واحد من شروط الاتفاق، ومنذ ذلك اليوم وأنا أحيا فقط من أجل الانتقام، صرت أفكر فيه نهارًا وأحلم به ليلًا، صار شغفًا عميقًا يسيطر عليَّ.

لم أكترث للقانون ولا لحبل المشنقة، ففكرة الهروب وتعقُّب شولتو حتى ألف يدي حول عنقه كانت الفكرة الوحيدة المسيطرة عليَّ، حتى كنز أجرا أصبح أمرًا ثانويًّا بالمقارنة بقتل شولتو.

لقد عاهدت نفسي على أشياء كثيرة في حياتي، ولم أخلف أي عهد قطعته لنفسي قط، لكن مرت سنوات طويلة حتى استطعت الوفاء به.

أخبرتكم أني كنت قد تعلمت القليل عن العقاقير، وفي أحد الأيام عندما كان الدكتور سومرتون يلازم الفراش لإصابته بحمى، وفي أحد الأيام، أمسكت مجموعة من المساجين بأحد السكان المحليين لجزيرة أندمان في الغابة، فقد كان مريضًا مرضًا مميتًا، وكان قد قصد مكانًا منعزلًا؛ كي يموت فيه.

أوليته رعايتي، وبعد عدة أشهر تحسنت حالته وأصبح قادرًا على المشي، وبعدها صار شديد الإعجاب بي، ولم يرد العودة إلى غابته، بل أصبح يتسكع طوال الوقت على مقربة من كوخي، وقد تعلمت منه بعضًا من لغته؛ مما زاد من إعجابه بي.

كان تونجا .فذلك كان اسمه. مراكبيًّا بارعًا يمتلك قارب تجديف كبيرًا وواسعًا، وعندما أدركت أنه صار مخلصًا لي ومستعدًّا لفعل أي شيء في سبيل خدمتي، رأيت فرصتي للهرب، وحدثته عن الأمر فوافق دون تردُّد.

كانت الخطة أن يأتي بقاربه في ليلة محددة إلى مرفأ قديم لا حراسة عليه، ويأخذني من هناك،

وقد أعطيته تعليمات بأن يُحضِر معه عدة قناني مملوءة بالماء، والكثير من حبات جوز الهند والبطاطا الحلوة.

كان تونجا الصغير مخلصًا ووفيًّا لأقصى درجة، ففي الليلة المحددة أحضر قاربه إلى المرفأ، فاتجهت نحو القارب وفي خلال ساعة كنا في عرض البحر، وقد أحضر تونجا معه كل ما يملك في الحياة؛ أسلحته، وأوثانه، ومن ضمن ما أحضر معه حربة طويلة من البامبو، وحصيرة مصنوعة من قشر نبات جوز الهند الأندماني صنعت منهما ما يشبه الشراع.

ظللنا نتخبط لعشرة أيام نأمل أن يحالفنا الحظ، وفي اليوم الحادي عشر انتشلتنا باخرة تجارية كانت مسافرة من سنغافورة إلى جدة في الحجاز، ومعها مجموعة من الحجاج المسلمين الملاويين.

كانت مجموعة غريبة الأطوار، وسرعان ما استطعت أنا وتونجا أن نندمج وسطهم. كانت تميزهم خصلة طيبة للغاية، وهي أنهم كانوا يتركون المرء لحاله، ولا يطرحون أي أسئلة، ولا يتدخلون فيما لا يعنيهم.

لن ترغبوا في سماع المغامرات التي خضتها أنا ورفيقي الصغير حتى نهرب من الحجاز إلى الشام إلى أوروبا، فسيستغرق سردها حتى طلوع الشمس، فقد همنا على وجهنا حول العالم ودائمًا كان يحدث ما يحول بيننا وبين الوصول إلى لندن، لكن طوال الوقت لم تغب غايتي عن عيني، فكنت أبيت أحلم بشولتو وقتلته مئات المرات في أحلامي.

لكن أخيرًا، منذ ثلاث أو أربع سنوات وجدنا أنفسنا في إنجلترا، ولم أجد صعوبة في معرفة مكان إقامة شولتو، وشرعت في محاولة اكتشاف ما إذا كان قد حوَّل الكنز إلى أموال أم ما زال محتفظًا به.

تقربت إلى شخص يمكنه مساعدتي .لن أذكر أي أسماء لأني لا أريد أن أورط أحدًا آخر في الأمر. وما لبثت أن عرفت أنه لا يزال محتفظًا بالجواهر. بعدها حاولت الوصول إليه بعدة طرق، لكنه كان ماكرًا وكان يحرسه طوال الوقت ملاكمان محترفان، بالإضافة إلى ابنيه وخادمه الهندي.

لكن في أحد الأيام، سمعت أنه على فراش الموت، فهرعت إلى حديقة منزله وأنا أخشى أن يفلت من قبضتي بتلك الطريقة، وعندما نظرت من النافذة رأيته يرقد في فراشه وعلى جانبيه يجلس ولداه.

كنت سأدخل من النافذة وأجازف بفرصتي أمام ثلاثتهم، لولا أني رأيت فكه يتدلى حين نظرت إليه، وعرفت حينها أنه قد فارق الحياة، لكني دخلت إلى غرفته في تلك الليلة وفتشت أوراقه؛ لأرى إن كان بها إشارة لمكان إخفاء مجوهراتنا، لكن لم أجد أي إشارة؛ لذا ذهبت وأنا أشعر بالحقد والغضب الدفين، وذكَّرت نفسي أني إن قابلت أصدقائي الثلاثة مرة أخرى فستريحهم معرفة أني تركت علامة تدل على كرهنا وانتقامنا، ولذا رسمت علامة الأربعة كما رسمتها من قبل على المخطط، ووضعتها على صدره، فكان سيعز عليَّ أن يوضع في قبره دون أن أترك له تذكارًا من الرجال الذين نهبهم وخدعهم.

كنا نكسب عيشنا في ذلك الوقت من عروض تونجا المسكين في المهرجانات الترفيهية وما شابه، على أنه شخص أسود آكل للحوم البشر، فكان يأكل اللحم النيئ ويرقص رقصة الحرب والناس تصفق، وبنهاية يوم العمل تكون قبعتنا قد امتلأت بالنقود المعدنية.

كانت الأخبار لا تزال تردني من بونديتشري لودج عن ابنَي شولتو، إلا أنهما كانا مستمرين في بحثهما عن الكنز.

وأخيرًا أتانا الخبر الذي طالما انتظرنا سماعه، وهو العثور على الكنز مخبأ في الجزء العلوي من المنزل في معمل السيد بارثلوميو شولتو الكيميائي؛ لذا ذهبت على الفور إلى المنزل، وألقيت نظرة على المكان، لكني لم أتصور كيف سأتسلق إلى الغرفة بساقي الخشبية، ثم عرفت بوجود باب أفقي في السطح، وعرفت كذلك الساعة التي يتناول فيها السيد بارثلوميو شولتو عشاءه، ففكرت أنه بإمكاني تدبير هذا الأمر بسهولة بمساعدة تونجا.

أحضرته معي وربطت حبلًا طويلًا حول خصره، فقد كان يستطيع التسلق ببراعة كالقط، وما لبث أن وصل إلى الغرفة عبر السطح، لكن شاء الحظ السيئ أن يكتشف أن بارثلوميو شولتو لا يزال في الغرفة، وقد اعتقد تونجا أنه فعل شيئًا في غاية الذكاء عندما قتله، فقد وجدته يتبختر باختيال كالطاووس، وذلك بعد أن تسلقت الحبل ودخلت إلى الغرفة، وقد شعر بالدهشة عندما ضربته بطرف الحبل، ووصفته بالشيطان الصغير المتعطش للدماء، وتوعدته بالجلد عقابًا.

أخذت صندوق الكنز، وأنزلته بالحبل، ثم نزلت أنا بعد أن تركت علامة الأربعة على الطاولة للدلالة على أن المجوهرات عادت إلى مستحقيها الأصليين، بعدها سحب تونجا الحبل، وأغلق النافذة، وهرب من نفس الطريق الذي دخل منه.

هذا كل ما لديَّ لأحكيه لكم، فبعدها سمعت عن صاحب قوارب يتحدث عن سرعة زورق سميث الذي يُدعَى (أورورا)؛ لذا فكرت أنه سيكون مفيدًا لنا في الهروب؛ لذا اتفقت مع العجوز سميث، ووعدته بأن أعطيه مبلغًا كبيرًا من المال إن أوصلنا سالمين إلى سفينتنا.

كان بلا شك يعلم أن ثمة أمرًا شائكًا، لكنه لم يطَّلع على سرنا الكامل أبدًا.

صمت سمول وابتلع ريقه، ثم نظر نحونا، وتابع:

- هذه هي الحقيقة يا سادة، وأنا لا أخبركم بها لتسليتكم، فأنتم لم تنفعوني بشيء، بل لأني أؤمن بأن خير دفاع لي هو أن أقول الحقيقة كاملة؛ ليعلم الجميع كم ظلمني الرائد شولتو! وكم أنا بريء من دم ابنه!

قال شيرلوك هولمز بهدوء وابتسامته الواثقة تعلو وجهه:

- يا لها من حكاية غريبة! إنها الخاتمة المناسبة لقضية مثيرة للغاية، بالتأكيد لم أجد جديدًا في الجزء الأخير من روايتك، إلا أنك أحضرت معك حبلك الخاص، فلم أكن أعرف ذلك بالمناسبة، وكنت آمل أن يكون تونجا قد فقد جميع سهامه، لكنه مع ذلك أطلق علينا واحدًا ونحن في الزورق.

- لقد فقدها جميعًا بالفعل يا سيدي، إلا واحدًا كان داخل قصبة النفخ حينها.

- بالطبع لم أفكر في ذلك.

ابتسم سمول، وقال بلطف:

- أهناك أي نقاط أخرى تود سؤالي عنها؟

أجاب رفيقي العزيز:

- لا أظن ذلك، شكرًا لك.

وهنا نهض أثيليني جونز كالعاصفة، وقال بصوته الجهور:

- حسنًا يا هولمز، لا أمانع أن أسايرك، فنحن جميعًا نعلم أنك خبير محنك في مجال الجريمة، لكن الواجب هو الواجب، وأنا تماديت كثيرًا عندما استجبت لما طلبته مني أنت وصديقك، ولن أرتاح إلا بعد أن أضع راوينا هذا خلف القضبان، وما زالت عربة الأجرة تنتظر، وهناك كذلك شرطيان بالأسفل. أنا ممتن لكما للغاية على مساعدتكما، وبالطبع سنطلبكما للشهادة في المحاكمة. عمتما مساءً.

ثم أمسك جوناثان سمول من ذراعه، وأنهضه مجبرًا، فلمس سمول طرف قبعته، وقال:

- عمتما مساءً أيها السيدان.

فقال جونز في حذر وهما يغادران الغرفة:

- من بعدك يا سمول، سأتوخى الحذر حتى لا تضربني بساقك الخشبية.

ثم غادرا المكان.

أرحت ساقي المصابة، وعلَّقت قائلًا بعد أن جلسنا ندخن في صمت لبعض الوقت:

- وبهذا تنتهي مأساتنا الصغيرة. أخشى أن هذه ستكون آخر فرصة يتسنى لي فيها دراسة أساليبك العظيمة، فقد منحتني الآنسة مورستن شرف قبول طلبي للزواج منها.

أطلق زفرة تنم عن الاغتمام الشديد وهو ينظر نحوي، ثم تابع ببرود:

- كنت أتوقع ذلك منك يا واطسون، لكن لا يسعني إلا أن أهنئك.

آلمني ذلك نوعًا وآذى شعوري، وسألته:

- ألديك ما يدعو لأن تكون غير راضٍ عن اختياري بالزواج من هذه الآنسة الرقيقة؟

- على الإطلاق، أعتقد أنها من أكثر الشابات التي قابلتهن سحرًا، وكانت ستفيدنا كثيرًا في أعمالنا هذه التي نقوم بها، فهي تملك موهبة لا غبار عليها في ذلك المجال. أرأيت كيف احتفظت بمخطط كنز أجرا دون جميع أوراق أبيها الأخرى؟ لكن الحب أمر عاطفي، وكل ما هو عاطفي يتعارض مع المنطق البحت، المنطق الذي أُقدِّمه على كل شيء آخر، فأنا شخصيًّا لن أتزوج خشية أن يتأثر حكمي على الأمور.

قلت ضاحكًا:

- أعتقد أن حكمي قد ينجو من تلك المحنة، لكنك تبدو مرهقًا للغاية.

- لقد بدأت آثار الإعياء تظهر عليَّ بالفعل. سوف أرقد واهنًا مثل خرقة بالية لأسبوع كامل.

قلت وأنا مندهش من طريقته الحزينة:

- أستغرب كيف يصبح الكسل والخمول متزامنًا جنبًا إلى جنب مع نوبات النشاط والهمة الشديدة لديك؟!

- نعم، فأنا أملك مقومات شخص كسول، وكذلك شخص شديد النشاط وكثيرًا ما أفكر في تلك السطور التي كتبها جوته: «خسارة أن الطبيعة لم تصنع إلا نسخة واحدة منك فقط، فقد كان

ثمة ما يكفي لخلق رجل وقور وآخر محتال».

ثم نفث دخان غليونه متابعًا في شرود:

- وبالمناسبة، فيما يخص قضية نوروود تلك، لقد كان للمجرمين كما ظننت حليف داخل المنزل، وكان ذلك الحليف هو الخادم الهندي لال راو؛ لذا في الحقيقة يستأثر جونز بكامل الفضل في اصطياد سمكة واحدة من المتورطين الفعليين في شباكه.

علَّقت قائلًا:

- تبدو لي هذه قسمة غير عادلة، فقد قمت أنت بالعمل كله في تلك القضية، وفزت أنا منها بزوجة، ونُسِب الفضل فيها لجونز، فماذا تبقى لك؟

فابتسم هولمز في سخرية، ونظر نحو رف المدفأة قائلًا:

- تبقى لي قنينة الكوكايين.

ثم مد أصابعه الطويلة، وتناولها من جديد!

(تمت بحمد الله)

شكر خاص وتقدير

أحمد عبد المجيد، صاحب الفكرة لبدء هذا المشروع، صاحب الفضل في أن أستمر في ترجمة هذا العمل، حتى يرى النور بين يدي قارئه.

هاني عبد الله، الرجل الذي يحول الأحلام إلى حقيقة.

كل من شاركني بفكرة أو بمعلومة ساعدتني في إتمام هذا العمل.

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

نبذة عن الرواية

إهداء المترجم

مقدمة المترجم

الفصل الأول

علم الاستدلال

الفصل الثاني

قضية الآنسة ماري مورستن

الفصل الثالث

البحث عن الحل

الفصل الرابع

قصة الرجل الأصلع

الفصل الخامس

مأساة منزل بوندشيري

الفصل السادس

شيرلوك هولمز يُقدِّم برهانًا

الفصل السابع

حادثة البرميل

الفصل الثامن

قوات شارع بيكر غير النظامية

الفصل التاسع

كسر في السلسلة

الفصل العاشر
نهاية رجل الجزيرة
الفصل الحادي عشر
كنز أجرا العظيم
الفصل الثاني عشر
قصة جونثان سمول
شكر خاص وتقدير